سير أعلام النبلاء

تصنيف

الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

المتوفى

٧٤٨هـ - ١٣٧٤م

الجزء الأول

أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه

شعيب الأرنؤوط

حقق هذا الجزء

حسين الأسد

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم


سير أعلام النبلاء
١

الطبعة الاولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

تقديم الكتاب

بقلم

الدكتور بشّار عوّاد معروف

أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
جامعة بغداد



الذهبيّ وكتابُه
سِيَرأعلام النبلاء

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد النبيِّ العربي الأميِّ، وعلى آله وأصحابِه الطيبين نجومِ الهُدى في كل حين، وبعد:

فهذا مختصرٌ نافع إن شاء الله في سيرة مؤرخ الإسلام الإمام الثقة التِّقن الناقِد البارع شمس الدين الذهبي، وفي كتابه النفيس «سِيَر أعلام النبلاء» ومنزلته بينَ الكتب التي مِن بابته، جعلتُه في فصلين: الأول في سيرة الذهبي والثاني في كتابه «السير».

تناول الفصلُ الأول البيئة الدمشقية التي نشأ بها الذهبيُّ بكلِ ما كان فيها من نهضة علمية واسعة، وما اعتراها مِن صراعات عقائدية، وانتشارِ الجهل، والاعتقادِ بالمغيَّبات بينَ العوام. وحاولت أن أُقَدِّمَ صورةً لبيئته العائلية المتدينة المَعْنِيَّة بالعلم التي ربته على حبِّ العلم والعلماء منذ نعومة أظفاره مما هيَّأه لمستقبل علمي مرسوم، فرأيناه عند اكتمال شخصيته يُعْنَى بطلِب العلمِ من قراءات وحديث؛ ثم تتبعتُ رحلاتِه في طلبِ العلم، واستطعتُ أن أُحدِّدها بالبلادِ الشامية والمصرية والحجازية، وبَيَّنتُ نتيجة تتبُّعي لنشاطه أن رحلته إلى البلاد المصرية كانت بينَ شهر رجب، وذي القعدةِ مِن سنة ٦٩٥ هـ، فصححتُ بذلك آراء بعضِ المؤرخين في هذه المسألة. وأوضحتُ طبيعة دراساته، وذكرتُ أنها كانت متنوِّعة لم تقتصِرْ على جانب واحد، لكنها في الوقت نفسِه لم تخرُج عن دائرة العلوم الدينية عموماً والعلوم المساعدة لها مِن تاريخ ونحو ولغة وأدب.

وتناول الفصلُ صلاتِ الذهبي الشخصية بابن تيمية والمِزِّي والبِرْزالي وأثرها في تبلورِ فِكره السَّلَفي المتمثل بميلِه إلى آراء الحنابلة ودفاعه عن مذهبهم في العقائد، وارتباطه الشديد بالحديث والمحدثين، ونظرته إلى العلوم والعلماء وفلسفتهم تجاهَ العلوم العقلية، مما أثر في منهجه التاريخي تأثيراً واضحاً، فظهر في اهتمامِه الكبير بالتراجم التي صارت تُكَوِّنُ أسسَ كتبه، ومحور تفكيره التاريخي، وفي نظرته إلى الأحداث التاريخية وأسس انتقائها، ثم فيما وُجِّه إلى كتاباته مِن نقد أثار نقاشاً بين علماء عصره، وعند العلماء الذين جاؤ وا بعده.

أما نشاطُه العلمي، فقد بينتُ أنه اتخذ وجهتين رئيستين: أولاهما كتاباتُه الكثيرة، وثانيتُهما تدريسُه الحديث في أمهات دور الحديث بدمشق بحيث استطعنا التعرفَ على خمس دور للحديث كان يتولّى مشيختها في آن واحد قُبَيْلَ وفاته.

وأبنتُ منزلة الذهبي العلمية استناداً إلى دراسة مُسْهَبة لآثاره الكثيرة التي خَلَّفها. وقد أظهرت الدراسةُ أن منزلته العلمية وبراعته ظهرتا في أحسن الوجوه إشراقاً وأكثرها تألُّقاً عند دراستي له محدثاً ومؤ رخاً وناقداً. وعلى الرغم من أنه عاش في بيئة غلب عليها الجمودُ والنقلُ والتلخيصُ، فإنه قد تخلَّص مِن كثير من ذلك بفضل سَعة دراساته وفِطنته. وكان مفهومُ التاريخ عند الذهبي يتَّصِلُ اتصالاً وثيقاً بالحديثِ النبوي الشريف وعلومه، وقد ظهر ذلك في عنايته التامة بكتب التراجم التي قامت عليها شهرتُه الواسعة باعتباره مؤ رخاً. وقد جعلت منه معرفتُه الرجالية الواسعة ناقداً ماهراً، ظهر ذلك في مؤ لفاته المعنية بالنقد وفي التفاتاته البارِعة في أصول النقد، ورده لكثير من الروايات، وتخطئته لكبار النقاد، وقدرته الفائقة على البحث والاستدلال.

وختمتُ الفصل بتذكرة مختصرة في تآليفه واختصاراته وتخريجاته مرتبة حسب موضوعاتها، وأشرتُ إلى ما طُبِعَ منها وما هو مخطوط مع بيان مكان النسخة الخطية على سبيل الاختصار. وقد تمكنتُ أن أَعُدَّ له مئتين وخمسة عشر مؤلفاً ومختصراً وتخريجاً.

أما الفصل الثاني الذي خصصتُه لمنهج «السِّيَر» وأهميته، فقد بدأتُهُ بالكلام على عنوان الكتاب وتأليفه، وتمكنتُ فيه أن أُحدِّد تاريخَ تأليف الكتاب بسنة ٧٣٢ هـ خلافاً لما هو شائعٌ عند الناس. ثم عَرَّجتُ على نطاق الكتاب وعددِ مُجلداته وتوصلتُ إلى أن الذهبي لم يكتب المجلدين الأول والثاني منه إنما طالب النُّسّاخَ باستلالِهما من تاريخه الكبير «تاريخ الإسلام»، وأن المجلدين لم يُفقدا كما نصت وقفيةُ الكتاب على المدرسة المحمودية، ثم أثبتُّ ـ بما لا يقبل الشك ـ أن المجلد الثالث عشر الذي وصل إلينا ليس هو آخر الكتاب، كما ادعى الدكتور الفاضل صلاح الدين المنجد، وتابعه الناسُ عليه، بل إن هناك مجلداً آخر يُتمم الكتاب هو المجلد الرابع عشر ومنه رجحتُ أن يكون الذهبي قد رتب كتابه على أربعين طبقة تقريباً وليس على خمس وثلاثين كما هو شائع.

وتناولت في هذا الفصل أيضاً ترتيبَ الكتاب على الطبقات فرأيتُ أن مستلزمات البحث تقتضي استعراضاً لظهور هذا الترتيب في تاريخ الحركة التأليفية عند المسلمين، ومحاولةً لتحديد هذا المفهوم التنظيمي عند الذهبي عن طريق دراسة مؤلفاته التراجمية المرتبة على الطبقات، ومنها كتابه «السير». وقد تمكنتُ فيما أعتقد ـ من تفسير التناقض الظاهري الناتج عن اختلاف عدد الطبقات في مؤلفاته ضمن وحدة زمنية محدَّدة معلومة، باختلاف نوعية المترجمين بينَ كتاب وآخر. وأوضحتُ بعد ذلك أن فائدة

الترتيب على الطبقات إنما تظهر في العصور الإسلامية الأولى، لذلك صِرنا لا نشعر بوجود «الطبقة» في كتاب «السير» كلما مضى الزمن بالكتاب، وضربتُ لكل ذلك أمثلة من الكتاب تعزز هذه الآراء وتقويها.

وكان لا بد لي، وأنا أبحث في منهج الكتاب، أن أتناول طبيعة التراجم المذكورة فيه، والأسسَ التي استند عليها الذهبيُّ في ذكر ترجمة وإسقاط أخرى، فأبنت أنه ذكر «الأعلام» وأسقط المشهورين والمغمورين، وحاول أن يُوجِدَ موازنةً بين الأعلام في النوعية والأزمان والأمكنة، واجتهد أن يُقدِّم ترجمة كاملة، ومختصرة في الوقت نفسه لا تؤثر فيها كمية المعلومات التي تتوافر عنده.

ولما كان الذهبي فناناً تراجمياً متميزَ الأسلوب في صياغة الترجمة وأساليبِ عرضها، فقد حاولتُ استشفافَ منهجه الذي انتهجه في «السير» في هذا المجال.

ثم تناولتُ بالدراسة منهجَه النقدي، فوجدتُه معنياً بكلِّ أنواعه، لم يقتصِرْ فيه على مجال واحد من مجالاته، فقد عُنِيَ بنقد المترجَمين وتبيانِ أحوالهم، وأصدَرَ أحكاماً وتقويمات تاريخية، وانتقدَ المواردَ التي نقل منها، ونبّه إلى أوهام مؤلفيها، وبرع في إصدار الأحكام على الأحاديث إسناداً ومتناً، وسحب ذلك على الروايات التاريخية. وحاولتُ بعد ذلك أن أستبين مدى تعصبه، أو إنصافه في النقد، فتبيَّن لي، بعد دراسة لجملة من كتاباته، أن الرجلَ قد وُفِّقَ إلى حدٍ كبيرٍ أن يكون مُنصفاً، ونَبَّهتُ إلى وجوبِ التَّفريق بين التعصب وبين الإيمان بالشيء، والدفاع عنه بكل ممكن.

أما أهميةُ كتاب «السير» فقد اجتهدتُ أن أستشرفها من دراسة علاقته بكتاب «تاريخ الإسلام» إذ كان قد شاع بين أوساط الدارسين أن «السير»

مختصر من «تاريخ الإسلام»، وقد أبانت دراستي للكتابين بطلانَ هذه الدعوى، ثم تكلمتُ على أهمية الكتاب في دراسة الحركة الفكرية العربية الإسلامية، وأهميته في دراسة المجتمع الإسلامي.

وحاولت بعد ذلك توضيحَ العوامل التي يسَّرت ظهور هذا الكتاب محققاً بهذه الهيئة العلمية الرائعة، والصفة البارعة النافعة التي تَسُرُّ كُلَّ محب للتُّراث، حريص عليه.

الفصل الأول

حياة الذهبي ومنزلته العلمية

أولاً - بيئة الذهبي ونشأته:

قامت دولةُ المماليك البحرية على أنقاض الدولة الأيوبية بمصر والشام وتمكن المماليكُ أَن يُكوِّنوا دولةً قويةً كان لها أثر في إيقافِ التقدم المغولي، وتصفية الإمارات الصليبية في بلاد الشام[1].

وكانت دمشقُ في نهاية القرن السابع الهجري ومطلع القرن الثامن قد أصبحت مركزاً كبيراً من مراكز الحياة الفكرية، فيها من المدارس العامرة ودور الحديث والقرآن العددُ الكثير، عمل على تعميرها حكامُها وبعضُ المياسير من أهلها لا سيما منذُ عهد نور الدين زنكي[2]. وكانت العنايةُ بالدراسات الدينية، من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ وعقائدَ، هي السمةَ البارزةَ لهذا العصر، ولم يعد هناك اهتمام كثيرٌ بدراسةِ العلوم الصرفة التي كانت قد أصبحت من «الصنائع المظلمة»[3] و«الهذيان»[4].

---

(١) راجع عن عصر المماليك: الدكتور علي إبراهيم حسن: «دراسات في تاريخ المماليك البحرية»، ط ٢ (القاهرة ١٩٤٨) والدكتور سعيد عاشور: «العصر المماليكي في مصر والشام»، وغيرهما. والكتاب الأخير أحسن ما كتب في الموضوع.

(٢) يتضح ذلك من العدد الذي ذكره النعيمي في كتابه «تنبيه الدارس».

(٣) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٦٣ (أيا صوفيا ٣٠٠٨).

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢، الورقة ٤.

ثم لاحظنا تبايناً شديداً في قيمة الإنتاج الفكري لهذه الفترة وأصالته، فوجدنا الكثيرَ من المؤلفات الهزيلة التي لم تكن غير تكرارٍ لما هو موجودٌ في بطون الكتب السابقة، ووجدنا القليلَ من المؤلفات التي امتازت بالأصالة والإبداع والمناهج العلمية المتميِّزة. وقد زاد من صعوبة الإبداع أَنَّ الواحدَ من العلماء كان يجد أَمامه تُراثاً ضخماً في الموضوع الذي يَرومُ التأليف فيه، وهو في وضعه هذا يختلفُ عن المؤلِّفين الأَوَّلين الذين لم يُجابِهوا مثل هذا التراث.

وشهدت دمشقُ في هذا العصرِ نزاعاً مذهبياً وعقائدياً حاداً، كانَ الحُكَّامُ المماليكُ يتدخلون فيه في كثيرٍ من الأَحيان، فيُناصرون فئةً على أُخرى[١]. وكان الأيوبيون قبل ذلك قد عُنُوا عنايةً كبيرةً بنشر مذهب الإمام الشافعي، فأَسَّسوا المدارسَ الخاصة به، وأوقفوا عليها الوقوف[٢]. وعنوا في الوقت نفسه بنشر عقيدة الأشعري، واعتبروها السُّنةَ التي يجبُ اتباعُها[٣]. لذلك أصبحت للأشاعرةِ قوةٌ عظيمةٌ في مصر والشام. وقد أثر ذلك على المذاهب الأخرى، فأصابها الوهنُ والضعفُ عدا الحنابلة الذين ظَلُّوا على جانبٍ كبيرٍ من القوة، وكانت لهم في دمشق مجموعةٌ من دور الحديث والمدارس[٤].

وكان النزاعُ العقائديُّ بين الحنابلةِ والأشاعرةِ مضطرماً، زاده اعتمادُ الحنابلة على النصوص في دراسة العقائد، واعتمادُ الأشاعرةِ على الاستدلال

(١) ابن كثير: البداية، ١٤ /٢٨، ٣٨، ٤٩، وابن حجر: «الدرر»، ١ / ٦١ وغيرهما.

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا: المنذري وكتابه «التكملة»، ص ٣٨ فما بعد.

(٣) وكان صلاح الدين أشعرياً متعصباً كما هو معروف من سيرته.

(٤) انظر النعيمي: «تنبيه الدارس» ٢ / ٢٩ ـ ١٢٦.

العقلي والبرهان المنطقي في دراستها[١]. وبقـدر ما ولَّـد هذا التعصبُ من تمزقٍ في المجتمع، فإنَّه وَلَّد في الوقت نفسه نشاطاً علمياً واضحاً في هذا المضمار، تمثَّلَ في الكتب الكثيرة التي أُلفت فيه. كما ظهر تحيُّزٌ واضح في كثيرٍ من كتابات العصر.

وكانَ الجهلُ والاعتقادُ بالخُرافات والمغيّبات سائداً بين العوام في المجتمع الدمشقي. وكان التصوُّفُ منتشراً في أرجاء البلاد انتشاراً واسعاً، وظهر بينهم كثيرٌ من المشعوذين الذين أثَّروا على العوام أَيَّما تأثير. بل عملَ الحكامُ المماليكُ على الاهتمام بهم، وكان لهم اعتقادٌ فيهم، فكان للملك الظاهرِ بِيبرس البندقداري «ت ٦٧٦ هـ» شيخٌ اسمه الخَضِرُ بنُ أبي بكر بن موسى العدوي، كان «صاحب حالٍ، ونفسٍ مؤثرة، وهمة إبليسية، وحال كاهني»، وكان الظاهرُ يُعظمه، ويزوره أكثر من مرةٍ في الأسبوع، ويُطلعه على أسراره، ويَستصحبه في أسفاره لاعتقاده التام به[٢]. وانتشر تقديسُ الأشياخ، والاعتقادُ فيهم، وطلبُ النذور عند قبورهم، بل كانوا يَسجدونَ لبعض تلك القبور، ويطلبونَ المَغفرةَ من أصحابها[٣].

في هذه البيئة الفكرية والعقائدية المضطربة، وُلد مؤرخ الإسلام شمسُ الدين أبو عبدالله محمدُ بنُ أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣[٤]. وكان من أُسرةٍ تركمانية الأصل، تنتهي بالولاء

---

(١) أبو زهرة: ابن تيمية، ص ٢٥.

(٢) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٦ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٣) المصدر نفسه، الورقة ٧٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).

(٤) انظر مثلاً: الذهبي: «طبقات القراء»، ص ٥٤٩، الصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٤، و«نكت الهميان»، ص ٢٤٢، وذكر ابن حجر أن مولده في الثالث من الشهر المذكور (الدرر، ٣ / ٤٢٦).

إلى بني تميم[١]، سكنتْ مدينةَ مَيَّافارقين من أشهر مدن ديار بكر[٢]. ويبدو أن جد أبيه قايماز قضىٰ حياته فيها[٣]، وتُوفِّي سنةَ ٦٦١ هـ وقد جاوز المئة، قال الذهبي: «قايماز ابن الشيخ عبد الله التركماني الفارقي جد أبي. قال لي ابنُ عَمِّ والدي عليُّ بن فارس النجار: تُوفِّي جدُّنا عن مئة وتسع سنين. قلتُ عُمِّرَ، وأَضَرَّ بأَخَرة، وتُوفِّي سنةَ إحدى وستين وست مئة»[٤]، وكان قد حج[٥].

وكان جده فخر الدين أبو أحمد عثمان أمياً لم يكن له حظٌّ من علم، قد اتخذ من النجارة صنعةً له، لكنه كان «حسن اليقين بالله»[٦]. ويبدو أنه هو الذي قدم إلى دمشق، واتخذها سكناً له، وتوفي بعد ذلك بها سنة ٦٨٣ هـ وهو في عَشْرِ السبعين[٧].

أما والده شهابُ الدين أحمد، فقد ولد سنة ٦٤١ هـ تقريباً، وعدل عن صنعة أبيه إلى صنعة الذهب المدقوق، فبرع بها، وتميّز، وعُرِف بالذهبي، وطلبَ العلمَ، فسمع «صحيح البخاري» سنة ٦٦٦هـ، من المقداد القيسي،

---

(١) كتب الذهبي بخطه على طرة المجلد التاسع عشر من «تاريخ الإسلام» (نسخة أيا صوفيا ٣٠١٢) «تأليف محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز مولى بني تميم».

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ٤ / ٧٠٣، فما بعد.

(٣) لم يذكر الذهبي في نسبته أنه دمشقي، بل قال: «الفارقي»، مما يدلُّ على أنه لم ينتقل إلى دمشق. وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمة الجزء الذي طبعه من «سير أعلام النبلاء» أنَّ قايماز هو الذي قدم دمشق، وأشار إلى معجم الشيوخ، ولم نجد لذلك دليلاً في مصدره ١ / ١٥ وانظر معجم الشيوخ (م ١ الورقة ٨٩).

(٤) الذهبي: أهل المئة فصاعداً، ص ١٣٧، و«معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٨٩.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٨٩.

(٦) الذهبي: «معجم الشيوخ» م ١ ورقة ٨٩.

(٧) المصدر نفسه.

وحجَّ في أواخر عمره، وكان ديِّناً يقومُ من الليل[١]. وقد يسَّرَتْ له صنعتُه رخاءً وغنى، فأعتق من ماله خمس رقاب[٢]، وتزَّوج من ابنة رجلٍ موصلي الأصل هو علم الدين أبوبكر سنجر بن عبدالله عُرف بغناه، وكـان «خيـراً عاقلاً مُديراً للمناشـير بديوان الجيش . . . وخلَّفَ خمسةَ عشر ألفاً»[٣] من الدنانير، وأحلَّه علمهُ وغناه ومروءتُه مكاناً جعلت خلقاً من أهل دمشق يُشيِّعونه يوم وفاته في آخر جمادى الأولى سنة ٦٩٧ هـ، يؤمُّهم قاضي القضاة يومئذ عزُّ الديـن ابنُ جماعة الكناني[٤].

وعُرف محمدٌ بابن الذهبي، نسبةً إلى صنعةِ أبيه، وكان هو يُقيِّدُ اسمَه «ابن الذهبي»[٥]. ويبدو أنه اتخذ صنعةَ أبيه مهنةً له في أول أَمره، لذلك عُرف عند بعض معاصريه بِـ«الذهبي» مثل الصلاح الصفدي[٦]، وتاج الدين السبكي[٧]، والحُسيني[٨]، وعماد الدين ابن كثير[٩]، وغيرهم.

(١) الذهبي: «تاريخ الإسلام» (وفيات ٦٩٧) نسخة أيا صوفيا ٣٠١٤، و«معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ١٣، والصفدي: «الوافي»، م ٧ ورقة ٨٦.

(٢) كان من بينهم فك أسر امرأتين من أسر الفرنجة من عكا (انظر المصادر في الهامش السابق).

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٥٥ وتوفي سنة ٦٨٦.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ١٣.

(٥) ونسبته بِـ «ابن الذهبي» مُقيَّدة بخطه في معظم الكتب والطِّباق التي بخطه مثل طبقة سماع كتاب أهل المئة فصاعداً (ص ١١١ بتحقيقنا)، وطرر المجلدات التي وصلت بخطه من «تاريخ الإسلام» (نسخة أيا صوفيا) وطبقة سماع لكتاب «الكاشف» له (نسخة التيمورية رقم ١٩٣٦) وجاء في أول «معجم شيوخه»: «أما بعد، فهذا معجم العبد المسكين محمد بن أحمد. . . ابن الذهبي».

(٦) «الوافي»، ٢ / ١٦٣ و«نكت الهميان»، ص ٢٤١.

(٧) «طبقات الشافعية الكبرى» ٩ / ١٠٠.

(٨) «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ٣٤.

(٩) «البداية والنهاية»، ١٤ / ٢٢٥.

وعاش طفولته بين أكناف عائلةٍ علميةٍ مُتدينة، فكانت مرضعتُه وعمتُه ستُّ الأهل بنتُ عثمان، الحاجةُ أُمُّ محمد، قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليُسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة آخرين، وسمعت من عُمر ابنِ القَوّاس وغيره، وروى الذهبي عنها[١]. وكان خالُه عليُّ قد طلبَ العلم، وروى عنه الذهبيُّ في «معجم شيوخه»، وقال: «علي بن سنجر بن عبدالله الموصلي، ثم الدمشقي الذهبي الحاج المبارك أبو إسماعيل خالي. مولده في سنة ثمان وخمسين وست مئة. وسمع بإفادة مؤدّبه ابن الخباز من أبي بكر ابن الأنماطي، وبهاء الدين أيوب الحنفي، وستِّ العرب الكِنْدية. وسمع معي ببعلبك من التاجِ عبدِ الخالق وجماعةٍ. وكانَ ذا مروءة وكَدٍّ علىٰ عياله وخوفٍ من الله. تُوفي في الثالث والعشرين من رمضان سنةَ ستٍّ وثلاثين وسبع مئة»[٢]. وكان زوجُ خالته فاطمةَ، أحمدُ بن عبد الغني بن عبد الكافي الأنصاري الذهبي، المعرف بابن الحَرَستاني، قد سمع الحديثَ، ورواه، وكان حافظاً للقرآن الكريم، كثيرَ التلاوة له، وتُوفِّي بمصر سنة ٧٠٠[٣] هـ.

وطبيعي أَنْ تعتني مثلُ هذه العائلة المتدينة التي كان لها حظٌّ من العلم بأبنائها، لذلك وجدنا أخاهُ من الرضاعة علاءَ الدين أبا الحسن علي بن إبراهيم بن داود بن العطار الشافعي: «٦٥٤ ـ ٧٢٤ هـ»[٤] يُسرع، ويَستجيزُ

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٥٧، ولدت ست الأهل سنة ٦٥٣ هـ وتوفيت سنة ٧٢٩ هـ.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ ورقة ٦.

(٣) المصدر السابق، م ١ ورقة ١٢.

(٤) الذهبي: «ذيل العبر»، ص ١٣٦، و«معجم الشيوخ»، م ٢ ورقة ١، ابن كثير: =

للذَّهبي جملةً من مشايخ عصره في سنة مــولده[١] منهم من دمشق : أحمدُ بنُ عبد القادر، أبو العباس العامري «٦٠٩ ـ ٦٧٣ هـ »[٢]، وابنُ الصابوني «٦٠٤ ـ ٦٨٠ هـ »[٣]، وأمينُ الدين ابنُ عساكر «٦١٤ ـ ٦٨٦ هـ »[٤]، وجمالُ الدين ابنُ الصيرفي «٥٨٣ ـ ٦٧٨ هـ »[٥]. ومن حلب: أحمدُ بنُ محمد ابن النَّصيبي «٦٠٩ ـ ٦٩٢ هـ »[٦] ، ومن مكة : الإمامُ مُحبُّ الدين الطبري محدثُ الحرم ومفتيـه «٦١٥ ـ ٦٩٤ هـ »[٧]، وغيره[٨]. ومن المدينة : كافورُ بن عبد الله الطواشي[٩]. ويبدو أنَّ علاء الدين ابن العطار قد حج في تلك السنة[١٠] فحصَّل بعض الإجازات من مكة والمدينة. وذكر ابنُ حجر أَنَّ الذين أجازوه في هذه السنة «جمع جم[١١]» وقال في ترجمة ابن

= «البداية»، ١٤ / ١١٧، ابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٧٣ ـ ٧٤، النعيمي : «تنبيه الدارس»، ١ / ٦٨ ـ ٧٠ ، ٩٩ ، ١١٢ . ورأينا لأبي الحسن ابن العطار هذا رسالة في السماع في خزانة كتب جستربتي بدبلن ضمن مجموع برقم ٣٢٩٦.

(١) ابن حجر : «الدرر»، ٣ / ٤٢٦ .

(٢) الذهبي : «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ١٢ .

(٣) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٥٥ .

(٤) المصدر السابق، م ١ الورقة ٨٠.

(٥) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٨٧ .

(٦) المصدر السابق، م ١ الورقة ١٨ .

(٧) الذهبي : «معجم الشيوخ»، م الورقة ٨.

(٨) انظر مثلاً: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٩٠، م ٢ الورقة ٦، ٣١ ، ٥٩ ـ ٦٠ ، ٨٨ ، وابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٤٣٦ .

(٩) الذهبي : « معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢٦ .

(١٠) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٥٩ ـ ٦٠ .

(١١ ابن حجر : «الدرر»، ٣ / ٤٢٦ .

العطار: «وهو الذي استجاز للذهبـي سنةَ مولده، فانتفع الذهبيُّ بعد ذلك بهذه الإجازة انتفاعاً شديداً»[١].

ويَمضي الطفلُ إلى أحد المؤدبين هو علاءُ الدين عليُّ بن محمد الحلبي المعروف بالبصبص، وكان من أحسنِ الناس خطاً، وأخبرهم بتعليم الصبيان، فيُقيم في مكتبه أربعة أعوام[٢]، وفي أثناء ذلك كان جدُّه عثمان يُدمنه على النطق بالراء يُقَوِّمُ بذلك لسانَه[٣]. ولا نعـرفُ في أية سنةٍ ترك المكتبَ، ولكنَّه كـان في سنة ٦٨٢ هـ، لم يزلْ عنده حيثُ أنشده في هذه السنة شِعراً لأبي محمد القاسم الحريري[٤]. وقد اتَّجه الذهبيُّ بعد ذلك إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحي، فلقَّنه جميعَ القرآن، ثم قرأ عليه نحواً من أربعين ختمة، وكان الشيخُ مسعود إمامَ مسجدٍ بالشاغور، وكان خيِّراً مُتواضعاً بَرّاً بصبيانه، لَقَّنَ خَلْقاً. وتُوفِّي سنة ٧٢٠ هـ [٥]. وبدأ الصبيُّ بالحضور إلى مجالس الشيوخ ليسمعَ كلامَ بعضِهم[٦]. ولما قدمَ عزُّ الدين الفاروثي، عالم العراق، إلى دمشق سنة ٦٩٠ هـ، ذهب الفتى وسلَّم عليه، وحدَّثه[٧]، مما يُدلِّلُ على حبه للعلم والعلماء منذ الصغر.

---

(١) المصدر السابق، ٣ / ٧٣.

(٢) الذهبي : «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ١١.

(٣) المصدر السابق، م ١ الورقة ٨٩.

(٤) المصدر السابق، م ٢ الورقة ١١ ومات مؤدبه في حدود سنة ٦٩٠هـ.

(٥) الذهبي : «معجم الشيوخ، م ٢ الورقة ٧٨.

(٦) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٥٨.

(٧) الذهبي : «معرفة القراء»، ص ٥٤٤. وتوفي الفاروثي سنة ٦٩٤ هـ.

ثانياً ـ بدء عنايته بطلب العلم:

بدأ الذهبيُّ يعتني بطلب العلم حينما بلغ الثامنةَ عشرةَ من عمره، وتوجَّهتْ عنايتُه إلى ناحيتين رئيستين هما: القراءات، والحديث الشريف.

أ ـ القراءات:

اهتم الذهبيُّ بقراءةِ القرآن الكريم، والعنايةِ بدراسة علم القراءات، فتوجَّه سنةَ ٦٩١ هـ هو ورفقةٌ له؛ إلى شيخِ القُراء جمالِ الدين أبي إسحاق إبراهيم بن داود العسقلاني، ثم الدمشقي، المعروف بالفاضِلي، فشرع عليه بالجمع الكبير[١]، وكانَ الفاضليُّ قد صحب الشيخَ عَلَم الدين السَّخاوي المُتَوفَّى سنة ٦٤٣ هـ، وهو الذي انتهت إليه رياسةُ الإقراء في زمانه[٢]، وجمعَ عليه القراءاتِ السبع، وتصدَّر للإقراء بتربة أم الصالح، ولكنَّه أُصيب بطرفٍ من الفالج، فكان يُقرئُ في بيته وينتهي الذهبيُّ عليه إلى أواخر سورة القصص، ويزدادُ الفالج على الشيخ، فيمنعُ الطلبةَ من الدخول عليه، ثم يموتُ سنة ٦٩٢ هـ، وتظلُّ قراءةُ الذهبيِّ على الفاضليِّ ناقصة[٣]. ولكنه كان في أثناء شروعه بالجمع الكبير على الفاضلي، قد شرع في الوقت نفسه يقرأُ بالجمع الكبير على الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن غالي المُقرىء الدمشقي «ت ٧٠٨[٤] هـ». وقرأ ختمةً جامعةً لمذاهب القراء

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٧، «ومعرفة القراء»، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ ابن الجزري: «غاية»، ٢ / ٧١.

(٢) سبط ابن الجوزي: «مرآة»، ٨ / ٧٥٨، القفطي: «إنباه»،٢/ ٣١١، الحسيني: «صلة التكملة»، (وفيات ٦٤٣)، الذهبي: «العبر»، ٥ / ١٧٨، ابن كثير: «البداية»، ١٣ / ١٧، ابن الجزري: «غاية» ١ / ٥٦٨.

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٢٧، و«معرفة القراء»، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣، ٥٧٦، ٥٩٢.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٣٠، و«معرفة القراء»، ص ٥٧٦.

السبعة بما اشتمل عليه كتاب «التيسير» للداني، وكتاب «حِرْزِ الأماني» للشاطبي على ابن جبريل المصري نزيل دمشق[١].

وما لبث الذهبيُّ أن أصبح على معرفةٍ جيدة بالقراءات، وأصولها ومسائلها، وهو لَمّا يزل فتىً لم يتعدَّ العشرين من عمره، قال في ترجمة قاضي القضاة شهابِ الدين أبي عبدِ الله محمدِ بنِ أحمد بن خليل الخويي ثم الدمشقي الشافعي المُتوفَّىٰ سنة ٦٩٣ هـ: «جلستُ بين يديه، وسألني عن غيرِ مسألةٍ من القراءات، فمنَّ اللهُ وأجبتُه وشهد في إجازتي من الحاضرين، وأجاز لي مروياته[٢]». على أنه استمر في تحصيل هذا الفن، فكتب في سنة ٦٩١ هـ «المقدمة في التجويد» عن مؤلفها المقرىء المجود أبي عبد الله محمد بن جوهر التلعفري المتوفَّى سنة ٦٩٦[٣] هـ، وتلا ختمةً للسبعة على مجدِ الدين أبي بكر بن محمد المرسي نزيل دمشق المتوفَّىٰ سنة ٧١٨[٤] هـ وجمع الختمةَ على شيخِ القُرَّاءِ ببعلبك موفّق الدين المُتوفَّىٰ سنة ٦٩٥[٥] هـ، وقرأ بالسبع أيضاً على المقرىء شمس الدين أبي عبد الله محمد بن منصور الحلبي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ، وكان الحلبيُّ هذا من المتصدِّرين بالعادلية وبالجامع الأموي[٦]. وقرأ كتابَ «المُبْهِج في القراءات السبع[٧]» لسبط الشيخ أبي منصور الخياط البغدادي، و «السبعة» لابن مُجاهد، وغيرهما على

---

(١) الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ٣٦.
(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٣١.
(٣) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٣٩
(٤) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٣٩.
(٥) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٧٤.
(٦) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٦٥ ـ ٦٦.
(٧) عندي منه نسخة مصورة عن نسخة معهد إحياء المخطوطات (رقم ٧٥ قراءات وتجويد) وهو كتاب نفيس للغاية.

شيخه أبي حفص عمر ابن القواس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ، وسمع «الشاطبية» من غيرِ واحدٍ من القُرَّاء[١].

وتميَّز الشابُّ في دراسةِ القراءات، وبرع فيها براعةً جعلتْ شيخَهُ شمسَ الدين أبا عبد الله محمد بنِ عبد العزيز الدمياطي ثم الدمشقي الشافعي، وهو من المُقرئين المجوِّدين، يَتنازلُ له عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة ٦٩٢ هـ، أو أوائل سنة ٦٩٣ هـ، حينما أصابه المرضُ الذي توفِّي فيه، وكان الذهبيُّ قد أكمل عليه القراءاتِ قبل ذلك[٢]، فكان هذا أول منصب علميٍّ يتولاه الذهبيُّ فيما نعلم، وإنْ لم يَدُمْ فيه أكثر من سنة واحدة[٣].

ب ــ الحديث:

وفي الوقت نفسه كان الذهبيُّ، وهو في الثامنةَ عشرةَ من عمره، قد مال إلى سماع الحديث، واعتنى به عنايةً فائقةً[٤]. وانطلقَ في هذا العلم حتى طغى على كل تفكيره، واستغرقَ كُلَّ حياته بعد ذلك، فسمع ما لا يُحصى كثرةً من الكتب والأجزاء، ولقيَ كثيراً من الشيوخ والشيخات، وأُصيب بالشَّرَهِ في سماع الحديث وقراءتـه، ورافقه ذلك طيلةَ حياته، حتى كانَ يَسمعُ من أُناس قد لا يَرضى عنهم، قال في ترجمة علاء الدين أبي الحسن علي بن مظفر

---

(١) انظر مثلاً الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٣٥، ٦٩.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٤٨، توفي شيخه بعد ذلك في صفر من سنة ٦٩٣ هـ.

(٣) قال الذهبي في ترجمة محمد بن أحمد بن علي شمس الدين أبي عبد الله الرضي الحنفي من معرفة القراء: «ولما سافرتُ إلى بعلبك، سنةَ ثلاثٍ وتسعين، وتعوقتُ بالقراءة على الموفق، وثب على حلقتي، فأخذها لكوني لم أستأذن الحاكم في الغيبة، وهو الآن يُقرىء بالجامع» ص ٦٠٠.

(٤) السبكي: «طبقات الشافعية الكبرى»، ٩ / ١٠٢، والسيوطي: «طبقات الحفاظ»، الورقة ٨٤.

الإسكندراني، ثم الدمشقي، شيخ دار الحديثِ النَّفِيسية، المتوفَّىٰ سنة ٧١٦ هـ: «ولم يكن عليه ضوءٌ في دينه، حملني الشَّرَهُ على السماع من مثله، والله يسامحهُ كان يُخِلُّ بالصلوات، ويُرمَىٰ بعظائمِ الأمور[١]»، وقال في ترجمة شيخه شهاب الدين غازي بن عبد الرحمن الدمشقي المتوفَّىٰ سنة ٧٠٩ هـ: «وكان ذا سيرةٍ غير محمودة، فالله يعفُو عنه، كتبَ عنه خلقٌ من أبناء البلد»[٢]، وقال في ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المتوفَّىٰ سنة ٧٠٦ هـ: «فقيرٌ مسكينٌ... ورأيتُهم يَذُمُّونه... روىٰ لنا عن خطيب مردا جزء البطاقة[٣]»، وذكر عن شيخه محمود بن يحيى التميمي الدمشقي المتوفَّىٰ سنة ٧٣٣ هـ أنه كان «سيءَ الحال، سفيهاً[٤]»، وقال عن أحد شيوخه: «لا ينبغي الروايةُ عنه، حكوا لي عنه مصائب[٥]»، وقال عن آخر: إنه كان «من عوام الطلبة»[٦]، وقال في ترجمة شيخه محمد بن النصير المؤذن المتوفَّىٰ سنة ٧١٥ هـ: «شُوَيخ عامي سمعنا منه، ولم يكن بذاك[٧]»، بل إنه ليذهبُ به حبُّه للحديث إلى القراءة على الصُّمِّ، فقد ذكر في ترجمة شيخه محمود بن محمد الخرائطي الصالحي الأصَمِّ المتوفَّىٰ سنة ٧١٦ هـ: «قرأتُ عليه بأقوىٰ صوتي في أذنه[٨]».

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ١٢.
(٢) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٢١.
(٣) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٣٠.
(٤) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٧٧.
(٥) المصدر نفسه، م ١ الورقة ٧٢.
(٦) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٥٥.
(٧) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٦٧.
(٨) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٧٦.

ثالثاً ـ رحلاته في طلب العلم:

كانَ الذهبيُّ يتحسَّرُ على الرحلة إلى البُلدان الأُخرىٰ، لِما لذلك من أهميةٍ بالغةٍ في تحصيلِ عُلُوِّ الإسناد، وقِدَم السَّماع، ولقاءِ الحُفّاظ، والمذاكرة لهم، والاستفادة عنهم[١]. إلا أَنَّ والده لم يُشجعه على الرحلة، بل منعه في بعض الأحيان، قال في ترجمة أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن محمد بن وريدة البغدادي الحنبلي شيخ المستنصرية «٥٩٩ ـ ٦٩٧[٢] هـ»: «وقد هممتُ بالرحلة إليه، ثم تركتُه لمكان الوالد[٣]»، وقال في ترجمته من «معرفة القراء الكبار»: «وانفردَ عن أقرانه، وكنتُ أتحسَّرُ على الرحلة إليه، وما أتجسَّرُ خوفاً من الوالد، فإنَّه كان يمنعني[٤]»، وقال في ترجمة المَكِين الأسمر المُقرىء الإسكندراني المُتوفَّىٰ سنة ٦٩٢ هـ: «ولما ماتَ شيخُنا الفاضلي، فازددتُ تلهُّفاً وتحسُّراً على لقيه، ولـم يكن الوالدُ يُمكِّنُني من السفر[٥]». ولم يكن الذهبيُّ ابناً عاقّاً يُخالف إرادةَ والده، لا سيما أَنَّ آدابَ طلب العلم تقتضي استئذان الأبوين في الرحلة[٦]، ووجوب طاعتهما وبرهما، وترك الرحلة مع كراهتهما ذلك وسُخطهما[٧]. ويبدو لنا أَنَّ الذهبيَّ

---

(١) راجع عن أهمية الرحلة: الخطيب البغدادي: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، «باب الرحلة في الحديث إلى البلاد النائية للقاء الحفاظ وتحصيل الأسانيد العالية» الورقة ١٦٨ ـ ١٦٩ (نسخة مكتبة البلدية بالإسكندرية ٣٧١١ ج ١).

(٢) الدكتور ناجي معروف: «تاريخ علماء المستنصرية»، ١ / ٣٤٢ ـ ٣٤٥.

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٤.

(٤) الذهبي: «معرفة القراء»، ص ٥٥٦ وقال في «تاريخ الإسلام»: «وكنتُ في سنة أربع وتسعين وسنة خمس أتلَهَّفُ على لقيه، وأتحسر، وما يُمكنني الرحلةُ إليه لمكان الوالد ثم الوالدة» الورقة ٢٦٨ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٥١ وانظر أمثلة أخرىٰ في «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥.

(٦) الخطيب البغدادي: «الجامع لأخلاق الراوي»، الورقة ١٧٠.

(٧) الخطيب البغدادي: «الجامع»، الورقة ١٧١ ـ ١٧٥.

كان وحيدَ أبيه، أو كان هو البارزَ بين أبنائه في الأقل[١]؛ بحيث كان يخافُ عليه هذا الخوف كُلَّه.

ويظهرُ أنَّ والده قد سمحَ له بالرحلة حينما بلغَ العشرينَ من عُمُره، وذلك سنة ٦٩٣ هـ[٢]. على أنه سمح له برحلاتٍ قصيرة لا يُقيم في كلٍّ منها أكثرَ من أربعةِ أشهر[٣] في الأغلب، ويرافِقُهُ فيها بعضُ مَنْ يَعتمدُ عليهم[٤].

أ ـ رحلاتُه داخل البلاد الشامية:

تُشيرُ المصادرُ إلى رحلاتِ الذهبي عرضاً، ولكنها لا تُقدِّمُ لنا عنها الكثير. على أنَّنا استطعنا أنْ نتبيَّنَ أنَّ أولَ رحلةٍ له ربَّما كانت إلى بعلبك سنة ٦٩٣ هـ[٥] حيثُ قرأ فيها القرآن جَمْعَاً على الموفق النَّصيبي المتوفَّىٰ سنة ٦٩٥ هـ[٦]، وأكثرَ عن المُحدِّث الأديب الإمام تاجِ الدين أبي محمد المغربي، ثم البعلبكي، المتوفَّىٰ سنة ٦٩٦[٧]. وسوف نجدُه مرةً أخرىٰ في بعلبك سنة ٧٠٧[٨] هـ، وقد سمع في هاتين الرحلتين على كثيرٍ من شيوخ

---

(١) لم نقف على أخ لمحمد بن أحمد الذهبي في جميع الكتب المطبوعة والمخطوطة التي اطلعنا عليها، مع أن الذهبي كثير العناية بذكر أقربائه.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٦٥.

(٣) قال الذهبي في ترجمة شرف الدين أبي الحسين يحيى بن أحمد الجذامي الإسكندراني ـ وكان قد بلغ السابعة والثمانين من عمره، ووجد الذهبيُّ بعضَ صعوباتٍ وتأخيرٍ في قراءة القراءات عليه، فخاف أن يذهب وقته سدى ـ: «وكنتُ قد وعدتُ أبي، وحلفتُ له أني لا أُقيم في الرحلة أكثرَ من أربعة أشهر، فخفتُ أعقه» «معرفة القراء»، ص ٥٥٨.

(٤) كان والدهُ يُرافقه في رحلته إلى حلب سنة ٦٩٣ هـ وقد سمع معه فيها، وكان رفيقه في رحلته إلى البلاد المصرية سنة ٦٩٥ ابن أمه في الرضاع داود بن إبراهيم بن داود ابن العطار الفقيه الشافعي، وهو أكبر من الذهبي بثمانية أعوام «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٤٧).

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، ١ / الورقة ٦٥

(٦) ابن الجزري: «غاية»، ٢ / ٧١، الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٧٤.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧١، السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.

(٨) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥٢.

البلد[١]. ورحلَ بعدَ ذلك إلى حلب، وأكثرَ فيها عن علاء الدين أبي سعيد سنقر بن عبد الله الأرمني، ثم الحلبي، قال: «رحلتُ إليه، وأكثرتُ عنه، ونعم الشيخُ كان دِيناً ومروءة وعقلاً وتعفُّفاً[٢]»، وسمع من جملةٍ من شيوخها[٣]. وتشير المصادرُ إلى أنه قد سمع ببلدان عديدة منها: حمص[٤]، وحماة[٥]، وطرابلس[٦]، والكرك[٧]، والمعرة[٨]، وبُصرى[٩]، ونابلس[١٠]، والرملة[١١]، والقدس[١٢]، وتبوك[١٣].

ب ـ رحلته إلى البلاد المصرية:

على أن رحلةَ الذهبي إلى البلاد المصرية كانت من أبرز رحلاته

---

(١) انظر مثلاً الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٤، ٨٣، ٨٨، م ٢ الورقة ٩، ٧٢، ٧٤، ٨١.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٥٥، و «ذيل العبر»، ص ٣٦، السبكي: «طبقات» ٩ / ١٠٢، الطباخ: «أعلام النبلاء»، ٤ / ٥٤٠.

(٣) انظر مثلاً: الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٧، ٣٤، ٣٩، السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٦٣، والصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٥.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٢، م ٢ الورقة ٦٨، ٨٢.

(٦) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧، ٢٢: ٢٩، م ٢ الورقة ٦، ٩ وذكر أنه نزل في مدرسة القاضي شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن منصور الإسكندراني الفقيه قاضي طرابلس «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٢.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٦١، م ٢ الورقة ١٦، ٤٢ ـ ٤٣ وقد سمع بها سنة ٦٩٨ من قاضي القضاة عز الدين محمد بن سلمان الحلبي.

(٨) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٩.

(٩) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٣.

(١٠) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٦، م ٢ الورقة ٧.

(١١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٤٧، والصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٥.

(١٢) الصفدي: «الوافي» ٢ / ١٦٥.

(١٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٦٥.

المبكرة، ويقول الدكتورُ صلاحُ الدين المنجد: إنه لا يُعرفُ متى سافر الذهبيُّ إلى مصر، ثم يقولُ: «ولعلَّ سفـره إلى مصر كان بُعيد وفاة أبيه سنة ٦٩٧ هـ، وقد عادَ سنة ٦٩٩ هـ[١]». واستند في ذلك على ما نقله ابنُ حجر عن مشيخة بدر الدين النابلسي الذي قال: «وأولُ ما ولي تصدير حلقة إقراء بجامع دمشق في أول رواق زكريا عوضاً عن شمس الدين العراقي الضرير المقرىء في المحرم سنة ٦٩٩ هـ بعد رجوعه من رحلته من مصر بقليل[٢]».

وقد استطعنا، نتيجةَ تَتَبُّعنا لنشاط الذهبي أن نُحدِّدَ رحلته إلى البلاد المصرية، وأنها كانت بين رجب وذي القعدة من سنة ٦٩٥ هـ، فقد تبيَّنَ أنه ابتدأ سفرته في رجب سنة ٦٩٥ هـ متوجِّهاً إلى فلسطين، قال في ترجمة شيخته أُمِّ محمد سيدة بنت موسى بن عثمان المارانية المصرية المتوفاة سنة ٦٩٥ هـ: «وقد رحلتُ إلى لقيِّها، فماتت وأنا بفلسطين، في رجب سنةَ خمسٍ وتسعين وست مئة[٣]» وقال في ترجمتها من «تاريخ الإسلام»: «كنتُ أتلهَّفُ على لقيِّها، ورحلتُ إلى مصر، وعلمي أنها باقية، فدخلتُ فوجدتُها قد ماتت من عشرة أيام... تُوفيت يوم الجمعة سادس رجب وأنا بوادي فحمة[٤]»، وبذلك نستنتجُ أنه وصل إلى البلاد المصرية في السادس عشر من رجب سنة ٦٩٥ هـ.

وأول ما افتتح سماعه بمصر على شيخه جمالِ الدين أبي العباس أحمد ابن محمد بن عبد الله الحلبي المعروف بابن الظاهري[٥] «٦٢٦ - ٦٩٦ هـ»،

---

(١) انظر مقدمته للجزء الذي طبعه من سير أعلام النبلاء، ١ / ١٨.

(٢) ابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٤٢٧.

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥٩.

(٤) الورقة ٢٤٦ (أيا صوفيا ٣٠١٤) ولم يذكر ياقوت وادي فحمة هذا.

(٥) كان والده محمد مولى الملك الظاهر صاحب حلب، فنسب إليه.

قال في «تاريخ الإسلام»: «وبه افتتحتُ السماعَ في الديار المصرية، وبه اختتمتُ، وعنده نزلتُ، وعلى أجزائه اتكلتُ. وقد سمع منه علمُ الدين (يعني البرزالي) أكثر من مئتي جزء[١]»، وقال في ترجمته من «معجم شيوخه»: «ودَّعتُه في ذي القعدة سنة خمس وتسعين، فقال لي: قُل للجماعة يجعلوني في حِلٍّ...[٢]». وطبيعيٌّ أن يرجع الإمام الذهبيُّ في ذي القعدة من السنة لأنَّه كان قد وعد أباه، وحلفَ له أنه لا يُقيم في الرحلة أكثرَ من أربعةِ أشهر، فخاف أن يَعُقَّه إذا تأخَّر[٣]. وقد تُوفِّي ابنُ الظاهري بعد ذلك في ربيع سنة ٦٩٦[٤] هـ. وقد ذكر مُترجمو الذهبي أنه سمع من الحافظ ابن الظاهري[٥] فكيفَ يصحُّ القولُ عندئذ أنه سافر بُعيد ٦٩٧ هـ!؟ وسمع بمصر بعد ذلك من جماعةٍ كبيرةٍ، من أشهرهم: مُسندُ الوقت أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد الأبرقوهي[٦] المتوفَّى سنة ٧٠١ هـ[٧]، وشيخُ الإسلام المجتهد قاضي القضاة تقيُّ الدين أبو الفتح محمد بن علي المعروف بابن

---

(١) الورقة ٢٥٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٢) م ١ الورقة ١٨.

(٣) الذهبي: «معرفة القراء»، ص ٥٥٨.

(٤) الذهبي: «تاريخ الإسلام» الورقة ٢٥٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤)، و«معجم الشيوخ» م ١ الورقة ١٨، ابن الجزري: «تاريخ»، م ٢ الورقة ٦٠ (باريس ٦٧٣٩).

(٥) أنظر مثلاً: السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢، وسبط ابن حجر: «رونق الألفاظ»، الورقة ١٨٠.

(٦) نسبة إلى (أبرقوه) بلد قرب يزد؛ ياقوت: «معجم البلدان»، ١ / ٨٥ وقد ولد بها حينما كان أبوه قاضياً عليها؛ الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ، م ١ الورقة ٥ و«ذيل العبر»، ص ١٨، السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢، ابن حجر: «الدرر»، ١ / ١١٠، ٣ / ٤٢٦، سبط ابن حجر: «رونق الألفاظ» (نسخة الخالدية)، الفاسي: «العقد الثمين»، ٣ / ١٥، ابن تغري بردي: «النجوم»، ٨ / ١٩٨ و«المنهل الصافي»، ١ / ٢١٨ وغيرها.

دقيق العيد القُشَيري المتوفَّىٰ سنة ٧٠٢ هـ[١] والعلامةُ شرفُ الدين عبدُ المؤمن بن خلف الدِّمياطي المُتَوفَّىٰ سنة ٧٠٥ هـ[٢]، وغيرهم[٣].

وفي أثناء وجوده بالبلاد المصرية رحل إلى الإسكندرية، وكان بها في شوال من السنة، قال في ترجمة شيخه أبي الحجَّاج يوسف بن الحسن التَّميمي القابسي ثم الإسكندراني: «وكنتُ في شوال هذه السنة في الإسكندرية وهو حيٌّ، وسمعتُ منه التجريد[٤]». ويظهر أنه سافر إليها في رمضان لأنه قرأ على صدر الدين سحنون ختمة لورش وحفص، وتوفي شيخه في الرابع من شوال سنة ٦٩٥ هـ[٥]. وفي ثغر الإسكندرية مضىٰ الذهبيُّ إلى أسندِ أهلِها في القراءات، الإمام شرفِ الدينِ أبي الحسين يحيى بن أحمد بن عبد العزيز ابن الصواف الجذامي الإسكندراني المقرىء المشهور «٦٠٩ - ٧٠٥[٦] هـ» فأُدخِل عليه، فوجده قد أَضَرَّ وأَصَمَّ، وهو في سبع وثمانين سنة، فقرأ عليه جُزءاً، ورفع صوتَه، فسمع، ثم كلَّمه في أَنْ يجمع عليه القراءات

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ ورقة ٥٥، و«ذيل العبر»، ص ٢١، و«تذكرة الحفاظ» ٤ /١٤٨١ - ١٤٨٤، ابن سيد الناس: «أجوبة»، الورقة ٦٥ (الإسكوريال ١١٦٠)، الأدفوي: «الطالع السعيد»، ص ٣١٧ - ٣٣٨، الصفدي: «الوافي»، ٤ / ص ١٩٣، ابن حجر: «رفع الإصر»، الورقة ١١٢ وغيرها.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٧، و«تذكرة الحفاظ»، ٤ / ١٤٧٧ - ١٤٧٩، ابن شاكر: «فوات»، ٢ / ١٧، ابن كثير: «البداية»، ١٤ / ٤٠، ابن قاضي شهبة: «منتقى المعجم المختص»، الورقة ١٦٢ «(أوقاف)، الصفدي: «الوافي»، م ١٧ ورقة ٢٣٦، و«معجم شيوخه» لخصه وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ جورج فايدا وطبع بباريس سنة ١٩٦٢ م. وفي خزانة كتبي الجزء الثالث من إحدىٰ نُسَخه الخطية.

(٣) انظر مثلاً: الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢١، ٤٢، ٦٤، ٩٦.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢٥.

(٥) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٤٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٦) الذهبي: «ذيل العبر»، ص ٣٢، ابن حجر: «الدرر»، ٥ / ١٨٥ - ١٨٦، الجزري: «غاية»، ٢ / ٣٦٦، المقريزي: «السلوك»، ٢ / قسم ١ ص ٢١.

السبع، فوافق، وبدأ الذهبيُّ بالقراءة، فقرأ عليه الفاتحةَ وآياتٍ من البقرة والشيخ يردُّ الخلاف، ويردُّ رواية يعقوب وغيره، ولَمَّا ذكر له الذهبي أنَّ قصده القراءة بالسبع حسب، تخيَّل الشيخُ منه نقصَ المعرفة، وطلب منه أنْ يذهب إلى أحد تلامذته، قال الذهبيُّ: «وزهَّدني فيه أني كنتُ لا أدخل عليه إلا بمشقَّةٍ وأُمنع، ويؤذن لي مرة، وأيضاً فكنتُ لا أقرأ ربعَ حزبٍ جمعاً، حتى ينقطعَ صوتي لمكان صممه» فخاف الذهبيُّ ضياع الوقت القصير، فتركه[1]، وذهبَ إلى الإمام المُقرىء صدر الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدِ الحليمِ بنِ عِمران الدكالي المعروف بسحنون «٦١٠ - ٦٩٥ هـ[2]» وكان قد ضَعُفَ وأُضرَّ، فختم عليه بقراءتَي ورش وحفص، في مدة أحد عشر يوماً مع جماعةٍ من رفاقه[3]. وسمع بالإسكندرية من جملةٍ من علمائها المتميزين[4] من أبرزهم: تاجُ الدين أبو الحسن عليُّ بن أحمد بن عبد المحسن الهاشمي الحسيني الواسطي الغَرَّافي ثم الإسكندراني «٦٢٨ - ٧٠٤ هـ» شيخُ دار الحديث النبيهية بالإسكندرية[5] كما رحلَ إلى بلبيس، وسمع بها[6]. لقد كانت هذه الرحلةُ قصيرةً، وكان الذهبيُّ يُجْهِدُ نفسَهَ في قراءةِ أكبرِ كميةٍ مُمكنة على شيوخِ تلك البلاد؛ فقد ذكرَ مثلاً أنه قرأَ جَميع سيرة ابن هشام على شيخه أبي المعالي الأبرقوهي في ستة أيام فقط[7].

---

(١) الذهبي: «طبقات القراء»، ص ٥٥٨، و«معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٨٤.

(٢) الذهبي، «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٣.

(٣) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٤٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤) و«معرفة القراء» ص ٥٥٥.

(٤) انظر مثلاً «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢١، ٢٢، ٧٥، ٨٦، م ٢ الورقة ١٧، ٦٠، ٧٤، ٨٣، ٨٥.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢ - ٣، و«ذيل العبر»، ص ٢٨ - ٣٢، الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ٩٤، ابن حجر: «الدرر»، ج ٣ ص ٨٥ - ٨٦، المقريزي: «السلوك»، ٢ / ص ١٣. وانظر أيضاً: السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.

(٦) الصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٤.

(٧) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ١٣٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).

جـ ـ رحلته للحج وسماعه هناك:

وفي سنة ٦٩٨ هـ، أي بُعيد وفاة والده رحل الذهبيُّ للحج، قال في حوادث السنة من «تاريخ الإسلام»: وحجَّ بنا الأمير شمسُ الدين العينتابي[١]»، وكان يرافِقُه في حَجِّه جماعةٌ من أصحابه وشيوخه[٢]، منهم شيخُ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية[٣] العالم المسندُ أبو عبد الله محمد ابن عبد المحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي «٦٣٨ ـ ٧٢٨ هـ»، وكان ابنُ الخرَّاط قد قدم دمشقَ في تلك السنة، وجلس للوعظِ بدمشق في شهر رمضان[٤]، قال الذهبيُّ: «ورافقنا في الحج، فسمعتُ منه بالعُلى ومعان كتاب «الفرج بعد الشدة»[٥]. وقد سمع بمكة[٦]، وعرفة[٧]، ومنى[٨]، والمدينة[٩] من مجموعة من الشيوخ.

---

(١) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٣٣ (أيا صوفيا ٣٠١٤).
(٢) انظر مثلاً: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٢، م ٢ الورقة ١٦.
(٣) الدكتور ناجي معروف: «تاريخ علماء المستنصرية»، ١ / ٣٥٤ ـ ٣٦٠.
(٤) ذكر ذلك علم الدين البرزالي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ ابن رجب: «الذيل»، ٢ / ٣٨٥ والذهبي في «معجم شيوخه»، م ٢ الورقة ٥٠.
(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٥٠ والكتاب المذكور للتنوخي كما هو معروف.
(٦) السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.
(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٠.
(٨) الذهبي: «معجم الشيوخ» م ١ الورقة ٨٣، ٨٤.
(٩) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٥٠.

رابعاً ـ طبيعة دراساته:

لم ينقطع الذهبيُّ طيلةَ حياته عن الدراسة والسماع لا يشغَلُه عنها شاغل، تدلُّ على ذلك معجماتُ شُيوخه لا سيما «المعجم الكبير». وكانت دراستُه وسماعاتُه متنوِّعةً لم تقتصر على القراءات والحديث.

وقد عُني بدراسةِ النَّحو، فسمع «الحاجبية» في النحو على شيخهِ موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء النَّصيبي البعلبكي المتوفى سنة ٦٩٥هـ[١]. ودَرَس على شيخِ العربية، وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك الشيخ بهاءِ الدين محمد بنِ إبراهيم المعروف بابن النَّحَّاس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ[٢]. إضافَةً إلى سماعه لعددٍ كبيرٍ من مجاميع الشعر واللغة والآداب[٣].

واهتم بالكُتُب التاريخية، فسمع عدداً كبيراً منها على شيوخه، في المغازي[٤]، والسيرة[٥]، والتاريخ العام[٦]، ومُعجمات الشيوخ والمشيخات[٧]، وكتب التراجم الأخرى[٨].

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٧٤.

(٢) المصدر نفسه، م٢ الورقة ٣٠، «وتاريخ الإسلام»، الورقة ٢٨٧ (أياصوفيا ٣٠١٤).

(٣) انظر مثلاً «تاريخ الإسلام»، ٣ /٦٥ (مطبوعة) والورقة ١١٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /٩) والورقة ١٥٧ (أيا صوفيا ٣٠٠٨) والورقة ٤٩ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١٠) «ومعجم الشيوخ» م٢ الورقة ٥٠

(٤) انظر مثلاً «تاريخ الإسلام»، ٦ /١٣٣ (مطبوعة).

(٥) انظر مثلا «تاريخ الاسلام»، الورقة ١٣٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).

(٦) المصدر نفسه، مثلاً الورقة ١٩٨ (حلب).

(٧) انظر مثلاً «معجم الشيوخ» م١، الورقة ١٥، ٢٢، ٢٦، ٢٨، ٣٣، ٤٢، ٤٦، ٥٥، ٨٠ م٢ الورقة ٩، ١٠، ٥٠، ٧١، ١٠٠، «وتاريخ الإسلام»، الورقة ٩٦ (أيا صوفيا ٣٠٠٨) والورقة ٢٢ (أيا صوفيا ٣٠٠٩) والورقة ٤ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١٠) والورقة ١٨٥ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١١).

(٨) مثلاً «تاريخ الإسلام» الورقة ٦٨، ٧٩ (أيا صوفيا ٣٠٠٢) وغيرها.

إلا أنَّ عنايَته الرئيسةَ في السماع كانت مُنْصَبَّةً على الحديث؛ فقد سمع الذهبيُّ مئاتِ الكتب والأجزاء الحديثية طيلَة حياته في طلب العلم ، يعرفُ ذلك من يقرأ مُعجماتِ شُيُوخه وكتبه بِروِيَّةٍ وإمعان، فضلاً عن أنَّ هذه الكتب والأجزاء هي ليستْ كُلَّ ما قرأ الذهبيُّ علي شيوخه، فهناك العددُ الهائلُ من الأحاديثِ النبويةالشريفة لم يُورِد في معجمات شيوخه منها إلا أمثلةً حسب. يُضافُ إلى ذلك أنَّه كان ربّماسمع الكتابَ أو الجزءَ على أكثَر من شيخٍ حتى يبلُغ في بعضها عشراتِ المرات أو عدداً كبيراً منها، ولنضربْ لذلك بعض الأمثلة؛ فقد سمع «جُزء الحسن بن عرفة» وهو من الأجزاء الحديثية المشهورة أكثر من أربعين مرة على أكثر من أربعين شيخاً[١]، وسمع «نسخة أبي مُسْهر» عبد الأعلى بن مُسْهر المتوفَّى سنة ٢١٨[٢] أكثر من اثنتي عشرة مرة[٣]، وسمع«جزء ابن فِيل[٤]» لأبي طاهر الحسن بن أحمد بن فيل البالِسي على أكثر من عشرة من الشيوخ[٥].

وأرىٰ من الواجب أن أُشير إلى أنَّ الذهبي لم يُعْنَ بذكر مسموعاته بصورةٍ مفصلةٍ في معجم شيوخه كما فعلَ ابنُ حَجَر مثلاً في «المعجم المفهرس» الذي رتَّبه

(١) انظر الذهبي : «معجم الشيوخ» ، م١ الورقة ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، م٢ ورقة ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

(٢) منه نسخة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٥٥٥١ ب .

(٣) انظر الذهبي : «معجم الشيوخ» م١ الورقة ٣٨ ، ٥٠ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٥ ، م٢ ورقة ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٦٥ .

(٤) منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٥٦٨ب.

(٥) انظر الذهبي : «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٦ ، ٢٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، م٢ الورقة ٣١ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٨٨ .

أساساً على الكتب[١]، وفي «المجمع المؤسس» الذي رتبه على الشيوخ ولكن ذكر فيه المرويَّاتِ أيضاً[٢]. ومع ذلك فإنَّ المروياتِ لا تمثِّلَ أصلاً دراساتِ الطالب أو العالم؛ لأنَّ الكتب المرويَّةَ محدودةٌ عموماً، بينما يستطيع الطالبُ أنْ يقرأَ ما يشاءُ من الكتب الفقهية والتاريخية والأدبية ودواوين الشعراء ونحوها وطائفة كبيرة منها لا تُروى.

على أننا نستطيعُ القول من دراستنا لكتب الذهبي واهتماماته، أنه عُني بالعلومِ الدينية عموماً، والعلومِ المساعدةِ لها كالنحو واللغة والأدب والشعر. كما أنه اطَّلعَ على بعض الكتب الفلسفية. ونشكُّ أنه درس كتباً في العلوم الصرفة لعدم اعتقاده بجدواها.

---

(١) ابن حجر: «المعجم المفهرس» (دار الكتب ٨٢ مصطلح الحديث).

(٢) نسختي المصورة(عن دار الكتب ٧٥ مصطلح الحديث).

خامساً ـ صلاته الشخصية وأثرها في تكوينه الفكري

اتصل الذهبيُّ اتصالاً وثيقاً بثلاثةٍ من شيوخ ذلك العصر وهم جمالُ الدين أبو الحجّاج يوسفُ[١] بن عبد الرحمن المِزّي الشافعي «٦٥٤ ـ ٧٤٢هـ» ، وتقيُّ الدين أبو العباس أحمد[٢] بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحَرّاني، «٦٦١ ـ ٧٢٨هـ» وعلمُ الدين أبو محمد القاسم[٣] بن محمد البرزالي «٦٦٥ ـ ٧٣٩هـ»، وترافَقَ معهم طيلةَ حياتهم. وكان الذهبيُّ أصغرَ رفاقه سِنّاً، وكان أبو الحجّاج المِزّي أكبَرهم. وكان بعضُهم يقرأ على بعض؛ فهم شيوخٌ وأقرانٌ في الوقت نفسه.

وقد ساعد من شدِّ أواصر هذه الرفقة اتجاهُهم نحو طلب الحديث منذ فترةٍ مبكرةٍ، وميلُهم إلى آراء الحنابلة ودفاعهم عن مذهبهم، مع أن المِزّيَّ والبِرْزاليّ

---

(١) راجع الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٩٠، و«تذكرة الحفاظ»، ٢/١٤٩٨، الحسيني: «الذيل على ذيل العبر»، ص ٢٢٩، السبكي: «طبقات»، ٦/٢٥١ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن كثير: «البداية» ١٤ /١٩١ ـ ١٩٢، ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ١٢٨، و«التبيان» الورقة ١٦٦، ابن حجر: «الدرر»، ٥/٢٣٣ ـ ٢٣٧، ابن تغري بردي: «النجوم» ١٠/٧٦، ابن طولون: «المعزة»، ص ١٠، ابن العماد: «شذرات»، ٦ /١٣٦، الكتاني: «فهرس» ١ /١٠٧. وراجع ما كتبناه في سيرته في مقدمة المجلد الأول من تهذيب الكمال.

(٢) ترجمةُ شيخ الإسلام ابن تيمية معروفةٌ تناولها معظمُ المؤرخين الذين تناولوا عصره ومنهم الذهبي. ومن الذين كتبوا عنه مفرداً ابنُ ناصر الدين في «الرد الوافر» (بيروت ١٣٩٣هـ) وابنُ قُدامة: «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية». ومن المحدثين: محمد كرد علي في «ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية» (لم يذكر مكان الطبع ولا تاريخه) ومحمد بن بهجة البيطار في «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (دمشق ١٩٦١) ومحمد أبو زهرة: «ابن تيمية، حياته وعصره، آراؤه وفقهه» (القاهرة ١٩٥٢).

(٣) انظر الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٢٥، «ذيل العبر» ص ٢٠٩، الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ١٨ ـ ٢١، السبكي: «طبقات» ٦/٢٤٦ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن كثير: «البداية»، ١٤/١٨٥، ابن شاكر: «فوات»، ص ١١٩، ابن حجر: «الدرر» ٣/٣٢١ ـ ٣٢٣، ابن تغري بردي: «النجوم» ٩/٣١٩، ابن العماد: «شذرات»، ٦ /١٢٤.

والذهبي كانوا من الشافعية. وكان كلٌّ واحدٍ منهم محُباً للآخر ذاكراً فضله. ويذكر الذهبي جيداً أنَّ عَلَم الدين البرزالي هو الذي حَبَّب إليه العنايةَ بالحديث النبوي الشريف؛ فقال في «معجم شيوخه الكبير»: «الإمامُ الحافظُ المتقنُ الصادقُ الحجةُ مفيدُنا ومُعلِّمنا ورفيقُنا محدِّث الشام مؤرخ العصر[1]»، وقال في موضع آخر: «وهو الذي حَبَّب إليَّ طلب الحديث، فإنَّه رأى خطي، فقال: خَطُّكَ يُشبهُ خط المحدثين! فأثَّر قولُه فيَّ، وسمعتُ منه، وتخرَّجتُ به في أشياء[2]»، وكان على غايةٍ من الإعجاب بعلمه، ولا سيما «معجم شيوخه»[3] الذي خَرَّجه لنفسه، وفيه ثلاثة آلاف شيخ، منهم ألفان بالسماع وألف بالإجازة[4].

وكتب الذهبيُّ عن شيخه ورفيقه المزي بأنه: «العلامةُ الحافظُ البارعُ أستاذُ الجماعة... مُحَدِّثُ الإسلام»[5] وأنه كان «خاتمةَ الحفَّاظ وناقدَ الأسانيد والألفاظ وهو صاحب معضلاتنا وموضح مشكلاتنا[6]».

أما ابنُ تيمية، فكانت شخصيتُه قد اكتملت منذ أن كان الذهبيُّ شاباً في أول طلبه العلم، وكان قد أصبح مجتهداً، له آراؤه الخاصة التي تقومُ في أصلها

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ» م ٢ الورقة ٢٥.

(٢) ابن حجر: «الدرر» ٣ / ٣٢٣.

(٣) نظم الذهبي في هذا المعجم بيتين من الشعر، قال:

إن رُمتَ تفتيشَ الخزائن كلها وظهور أجزاءٍ حوت وعوالي
ونعوت أشياخ الوجودِ وما رَوَوا طالعْ أو اسمعْ مُعجم البرزالي

ابن حجر: «الدرر»، ٣٢٢/٣، ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ١٢٠.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٢٥، و«ذيل العبر»، ص ٢٠٨، ابن حجر: «الدرر»، ٣٢٢/٣، ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ١٢٠.

(٥) «معجم الشيوخ» م٢ الورقة ٧٠، وانظر «تذكرة الحفاظ» ٤ /١٤٩٨ - ١٤٩٩.

(٦) ابن حجر: «الدرر» ٥/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

على اتّباع آثار السلف، وابتدأ منذُ سنة ٦٩٨هـ يدخلُ في خصوماتٍ عقائدية حادَّةٍ مع عُلماء عصره من المُخالفين له[١]، ويُقيم الحدودَ بنفسه، ويحلِقُ رؤوس الصبيان[٢]، ويحُارِبُ المشعوذين من أدعياء التصوف[٣]، ويمنعُ من تقديم النذُور[٤]، ويدور هو وأصحابُه على الخمّارات والحانات، ويُريقُ الخمور[٥]، ويقاتِلُ بعضَ من يعتقدُ فسادَ عقيدته[٦]، ويشتطُّ على القضاة[٧]، بل بلغ الأمرُ به في إحدى المرات أن دخل السجنَ، وأخرج رفيقَه المِزِّيَّ منه بنفسه[٨]. وظهرتْ شخصيتُه السياسيةُ في الحرب الغازانية سنة ٦٩٩ هـ وما بعدها،لاسيما سنة ٧٠٢هـ فقد كان لهالدور البارز في انتصار المماليك على المغول في وقعة شقحب[٩].

وقد أحبَّ الذهبيُّ شيخَهُ ورفيقَه، وأُعجِبَ به، فقال بعد أن مدحه مدحاً عظيمًا: «وهو أكبرُ من أنْ يُنبِّه مثلي على نعوته،فلو حُلِّفتُ بين الرُّكن والمَقام لحلفتُ؛ أني ما رأيتُ بعيني مثله، ولا والله ما رأىٰ هو مثلَ نفسه في العلم[١٠]». ولما ماتَ،

(١) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٣٢ (أيا صوفيا ٣٠١٤)، الصفدي: «الوافي»٥/٢٢، ابن كثير«البداية»١٤/٤، ابن حجر: «الدرر»١/١٥٥.

(٢) ابن كثير: «البداية»، ١٤/١٩.

(٣) الصفدي: «الوافي»٥/١٨، ابن كثير: «البداية»١٤/٣٣، وانظر فتواه في «الصوفية والفقراء»(نشرها رشيد رضا بالقاهرة ١٣٤٨ ط٢).

(٤) ابن كثير: «البداية»١٤/٣٤.

(٥) المصدر نفسه، ١٤/١١

(٦) المصدر نفسه ١٤/١٢.

(٧) ابن حجر: «الدرر»١/١٥٦

(٨) السبكي: «طبقات» ٦/٢٥٤ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن كثير: «البداية» ١٤/٣٧، ابن حجر: «الدرر» ٥/٢٣٤.

(٩) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٣٤ فما بعد(أيا صوفيا ٣٠١٤)، الصفدي: «أعيان العصر»٨/ الورقة ١ ـ ٧ (أيا صوفيا ٢٩٦٨)،ابن كثير: «البداية»١٤ /٩ فما بعد.

(١٠) ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ٣٥، وقارن ابن حجر: «الدرر» ١/١٦٨ ـ ١٦٩.

رثاه بقصيدةٍ[١]، وذكر أَنَّ مصنفاته قد جاوزت الألف[٢]، وبالغ في ذكر مساوىء من حط عليه مثل الأمير سيف الدين تنكز[٣] نائب الشام.

ولم تكن محبةُ رفيقيه وإعجابهُما بابن تيمية بأقلَّ من محبة الذهبي له، بل ربما كان المِزِّيُّ أكثرهم إعجاباً ومحبةً له مع أنه أكبرُ منه سِناً[٤].

ومع أنَّ الذهبيَّ قد خالف رفيقَه وشيخَه «في مسائل أصلية وفرعية[٥]»وأرسل إليه نصيحتَه الذهبية[٦] التي يلومه، وينتقدُ بعضَ آرائه وآراء أصحابه بها، إلا أنه بلا ريب قد تأثَّر به تأثُّراً عظيمًا، بحيثُ قال تاجُ الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ: «إنَّ هذه الرفقة المِزِّي والذهبي والبِرْزالي أَضَرَّ بها أبو العباس ابن تيمية إضراراً بيِّناًوحمَّلها من عظائم الأمور أمراً ليس هيِّناً، وجرَّهم إلى ما كان التباعدُ عنه أولى بهم[٧]».

إنَّ هذه الصلةَ بين الرُّفقة، وما اختطُّوه لأنفسهم فيما ارتضوه، ومالوا إليه من آراء الحنابلة، قد أدت في كثير من الأحيان إلى إيذائهم والتحامُل عليهم بما

---

(١) ابن ناصر الدين: «بديعة الزمان»، الورقة ١٦٥، و«الردّ الوافر» ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ٣٥، وقارن ابن حجر: «الدرر» ١/ص ١٦٠. وقال الصفدي: «ومَنْ الذي يأتي على مجموعها!» وذكر منها جملة كبيرة «الوافي» ٥ / ٢٣ - ٣٠.

(٣) ابن حجر: «الدرر»، ١/ ٦١. وعاتب الذهبيُّ تلميذَه تاجَ الدين السبكي بسبب كلامٍ وقع منه في ابن تيمية، فاعتذر منه السبكي برسالةٍ أرسلها إليه. ابن حجر: «الدرر»، ١/ ١٦٩.

(٤) انظر أقوال المزي في ابن تيمية في كتاب «الرد الوافر» ص١٢٨ - ١٣٠ وأقوال البرزالي في الكتاب نفسه ص ١١٩ - ١٢٣. وكان ابن تيمية شديد الإعجاب بالمزي، فلما باشر دار الحديث الأشرفية بعد الشريشي، قال ابنُ تيمية: «لم يلها من حين بُنيت إلى الآن أحقُّ بشرط الواقف منه» انظر: ابن كثير: «البداية»، ١٤/ ٨٩، ابن حجر: «الدرر» ٥/ ٢٣٤، النعيمي: «تنبيه»، ١/ ٣٥.

(٥) ابن حجر: «الدرر» ١/ ١٦٦.

(٦) الذهبي: «النصيحة الذهبية لابن تيمية» (دمشق ١٣٤٧هـ).

(٧) السبكي: «طبقات» ٦/ ٢٥٤ (القاهرة ١٣٢٤هـ).

ليس فيهم. وقد أُوذِي المِزِّيُّ بسبب ذلك[١]، وحُرِمَ الذهبيُّ بسبب آرائه من توليِّ أكبر دارٍ للحديث بدمشق، هي دار الحديث الأشرفية[٢] التي شغرت مشيختُها بعد وفاة رفيقه المِزِّي سنة ٧٤٢هـ، فأشار قاضي القضاة علي بن عبد الكافي السبكي أن يعين الذهبي لها، فتكلم الشافعيةُ بأن الذهبي ليس بأشعري، وأن المِزِّيَّ ما وليها إلا بعد أن كتب بخطِّه، وأشهد على نفسه بأنه أشعري، واتّسع النقاشُ بينهم، ورفض الشافعيةُ أن يتولّاها الذهبيُّ بعد أن جمعهم نائبُ الشام ألْطنبغا بالرغم من إلحاح السبكي، ولم يُحْسَم الأمرُ إلا بتولية السبكي نفسه[٣]. ثم أثَّرت صلةُ الذهبي بابن تيمية فيما اختصر[٤] أو ألَّف[٥] من كتب، وفي بلورة بعض آرائه، وحبِّه للحنابلة[٦]، وموقفه من بعض المتصوفة[٧] ولا سيما طائفة الأحمدية، أتباع الشيخ أحمد الرفاعي[٨]. وهو يذكرُ

---

(١) من ذلك ما حدث سنة ٧٠٥هـ حينما وقعت المناظرة بين ابن تيمية والشافعية فقرأ الشيخُ جمالُ الدين المزي فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب خلق أفعال العباد للبخاري تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري، فغضب بعضُ الفقهاء الحاضرين، وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صَصْرَى، وكان من أعداء ابن تيمية، فأمر بسجن المزي، ولما بلغ ابنَ تيمية ذلك، تألَّم كثيراً، وذهب إلى السجن، فأخرجه منه بنفسه، فغضب نائبُ دمشقَ فأعيد المِزِّيُّ، ثم أُفرج عنه. ابن كثير: «البداية» ١٤/٣٧، ابن حجر: «الدرر»٥/٢٣٤).

(٢) منسوبة إلى الملك الأشرف ومظفر الدين موسى ابن العادل الأيوبي، ابتدأ عمارتها سنة ٦٢٨هـ، وافتتحت سنة ٦٣٠هـ، وأول من وليها محدثُ عصره الشيخ تقي الدين ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ انظر الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٤٣ (أيا صوفيا ٣٠١٢)، والنعيمي: «تنبيه الدارس»١/١٩ فما بعد.

(٣) السبكي: «طبقات الشافعية»، ٦/١٧٠ ـ ١٧١ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن قاضي شهبة: «طبقات الشافعية»، الورقة ١٠٥ (أحمد الثالث ٢٨٣٦).

(٤) من ذلك مثلاً «المنتقى من منهاج الاعتدال لشيخه ابن تيمية(وانظر القسم الخاص بكتبه).

(٥) من ذلك مثلاً كتاب «العلو» (وانظر القسم الخاص بكتبه)

(٦) الذهبي: «معجم الشيوخ»م١ ورقة ٤.

(٧) قال في ترجمة شيخه بهاء الدين أبي المحاسن عبد المحسن بن محمد المعروف بابن العديم المتوفى سنة ٧٠٤هـ: «وكان يدخل في ترهات الصوفية» «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٨٥

(٨) قال في ترجمة ثعلب بن جامع الصعيدي الأحمدي الباز دار المتوفى سنة ٧٢٥هـ: «كان من كبار الأحمدية، وله أتباع، ثم أنه تاب وترك تلك الرعونات» «معجم الشيوخ» م١ الورقة ٤٠ .

أَنَّ علم المنطق «نفعُه قليلٌ وضررُه وبيلٌ وما هو من علوم الإسلام[١]» ويقولُ عن الفلسفة: «الفلسفةُ الإلٰهية ما ينظرُ فيها من يُرجىٰ فلاحُه، ولا يركنُ إلى اعتقادها من يلوحُ نجاحه؛ فإنَّ هٰذا العلم في شق، وما جاءت به الرُّسُل في شق، ولكن ضلال مَن لم يدر ما جاءت به الرسلُ كما ينبغي بالحكمة أشرُّ ممن يدري، واغَوْثاه بالله إذا كان الذين قد انتدبوا للردّ على الفلاسفة قد حاروا، ولحقتهم كسفة، فما الظن بالمردود عليهم[٢]؟!».

ثم كان لهذه الرفقة، أعني رفقة ابن تيمية، أن جعلت بعضَ الناس يجدونَ فيها سبباً لطعنهم في كتاباته بسبب اعتقادهم بتحيُّزها[٣]. وقد أثارتْ هذه المطاعنُ نقاشاً بين علماء عصره، وعند العلماء الذين جاؤوا بعده[٤] وهو ما سوف نبحثُه عند كلامنا على منهجه في «سير أعلام النبلاء»[٥]

ومع أَنَّ كثيراً من الانتقادات التي وُجِّهت إلى الذهبي بسبب العقائد كان يغلبُ عليها طابعُ التحامل والتعصب، إلا أننا في الوقت نفسه يجبُ أن نعترفَ بأنَّ تكوينَه الفكري العام قد ارتبط ارتباطاً شديداً بالحديث والمحدثين ونظرتهم إلى العلوم والعلماء وفلسفتهم تجاه العلوم العقلية، وقد أثَّر ذلك، كما سنرىٰ، في منهجه التاريخي تأثيراً واضحاً حينما ربطه بالحديث النبوي الشريف وعلومه، فاهتم اهتماماً كبيراً بالتراجم حتى صارت أساس كثير من كتبه، ومحور تفكيره.

---

(١) الذهبي: «بيان زغل العلم»، ص ٢٤ وقال في ترجمة أحد شيوخه: «ثم دخل في المنطق، فالله يسلم، ثم أقبل على شأنه» «معجم الشيوخ» م١ ورقة ٦٦ - ٦٧.

(٢) الذهبي: «بيان زغل العلم» ص ٢٥ - ٢٦ وانظر «معجم الشيوخ» م٢ الورقة ٤٩.

(٣) السبكي: «معيد النعم»، ص ٧٤، و«الطبقات»، ٢/ ١٣ - ١٥، ٢٢ - ٢٥، ٩/ ١٠٣.

(٤) السخاوي: «الإعلان»، ص ٤٩٩ فما بعد، وابن عبد الهادي: «معجم الشافعية» الورقة ٤٧ - ٤٨.

(٥) انظر الفصل الثاني.

سادساً ـ نشاطُه العلمي ومناصبه التدريسية:

بدأت حياةُ الذهبي العلمية في الإنتاج في مطلع القرن الثامن الهجري كما يبدو، فبدأ باختصار عددٍ كبير من أمهات الكتب في شتىٰ العلوم التي مَارسها، ومن أهمِّها التاريخ والحديث. ثم توجَّه بعد ذلك إلى تأليف كتابه العظيم «تاريخ الإسلام» الذي انتهىٰ من إخراجه لأول مرة سنة ٧١٤[١] هـ.

وقد تولّىٰ الذهبي في سنة ٧٠٣ هـ الخطابة بمسجد كفر بطنا[٢]، وهي قرية بغوطة دمشق[٣]، وظلَّ مقيماً بهاإلى سنة ٧١٨ هـ.

وفي هذه القرية الهادئة ألَّف الذهبي خِيرة كتبه، وقد ساعده على ذلك كما يبدو تفرُّغه التام للتأليف.

وفي شوال سنة ٧١٨ هـ تُوفِّي الشيخ كمال الدين أحمد بن محمد بن أحمد ابن الشريشي الوائلي، وكيلُ بيت المال، وشيخ دار الحديث بتربة أم الصالح وغيرها[٤]، وكانت هذه الدار من كُبرياتِ دور الحديث بدمشق آنذاك[٥]، تولَّاها كمال الدين ابن الشريشي مدة ثلاث وثلاثين سنة ابتداءاً من سنة ٦٨٥ هـ وإلى حين وفاته وكان والده قد تولاها قبله[٦].

قال ابن كثير في حوادث سنة ٧١٨ هـ: «وفي يوم الاثنين العشرين من

---

(١) انظر الورقة الأخيرة من نسخة أيا صوفيا ٣٠١٤.

(٢) الحسيني: «ذيل العبر» ص ٢٦٩، ابن كثير: «البداية» ١٤ / ٢٨.

(٣) محمد كرد علي: «غوطة دمشق» ص ٢٤.

(٤) الذهبي: «ذيل العبر» ص ٩٩، ابن كثير: «البداية»، ١٤ / ٩١، النعيمي: «تنبيه الدارس» ١ / ٣٣ ـ ٣٤.

(٥) النعيمي: «تنبيه» ١ / ٣١٦، وواقفها هو الصالح إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر.

(٦) ابن كثير: «البداية» ١٤ / ٨٨، ٩١، النعيمي: «تنبيه» ١ / ٣٤.

ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي المحدِّثُ الحافظُ بتربة أم الصالح عِوَضاً عن كمال الدين ابن الشريشي . . . وحضر عند الذهبي جماعة من القُضاة[١]» . وقد اتخذها الذهبي سكناً له وبقي فيها إلى حين وفاته .

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من جمادىٰ الآخرة سنة ٧٢٩ هـ وَلِيَ شمس الدين الذهبي دارَ الحديث الظاهرية[٢] بعد الشيخ شهاب الدين أحمد بن جهبل ونزل عن خطابة كفر بطنا[٣] .

ولما توفِّي الشيخ علم الدين البِرْزالي ، شيخُ الذهبي ورفيقه ، سنة ٧٣٩ هـ ، تولَّىٰ الذهبي تدريسَ الحديث بالمدرسة النفيسية وإمامَتها عوضاً عنه ، وكتبَ له تلميذُه صلاح الدين الصفدي توقيعاً بذلك[٤] .

وفي هذه السنة أيضاً ، أعني سنة ٧٣٩ هـ ، كَمُلَ تعمير دار الحديث والقرآن التنكزية[٥] ، وباشرَ الذهبي مشيخَةَ الحديث بها[٦] . وقد أخطأ محيي

---

(١) ابن كثير : «البداية» ١٤ / ٨٨ .

(٢) أسسها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٧٦ هـ ، هي والمدرسة الظاهرية وهي اليوم مقر دار الكتب الظاهرية الواقعة قبالة المجمع العلمي العربي بدمشق ، انظر عنها : النعيمي : «الدارس» ١ / ٣٤٨ .

(٣) ابن كثير : «البداية» ١٤ / ١٤٣ .

(٤) الصفدي : «الوافي» ٢ / ١٦٦ وتجد نص التوقيع في كتابه .

(٥) منسوبة إلى الأمير تنكز نائب الشام ، وليها سنة ٧١٢ هـ ومات معتقلاً بالإسكندرية في أوائل سنة ٧٤١ هـ (الحسيني : «ذيل العبر» ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، ابن حجر : «الدرر»٢/٥٥/ ٦٢) قال ابن كثير في حوادث سنة ٧٣٩ هـ : «ومما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث السكرية (كذا والصحيح : التنكزية) وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الإمام الحافظ مؤ رخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، وقرر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز ، وقرر للشيخ ثلاثون رطل خبز ، وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرؤ ون القرآن لكل عشرة شيخ ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ، ورتب لها إمام ، وقاريء حديث ، ونواب ، ولقاريء الحديث عشرون درهماً وثمانيُ أواق خبز وجاءت في غاية الحسن . . . الخ ، ١٤ / ١٨٤ .

(٦) ابن كثير : «البداية» ١٤ / ١٨٤ ، النعيمي : «تنبيه» ١ / ١٢٣ .

الدين عبد القادر النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ حينما جعل الذهبي يخلُف تقي الدين ابن تيمية في دار الحديث السُّكرية[١]، فترجمه فيها[٢] وكرَّر ذلك، مع أن الذهبي لم يتوَلَّ هذه الدار كما يبدو. ويظهر أن «التنكزية» تحرفت إلى «السكرية»[٣] فظن الرجل أنه تولاها، مع أنه ذكر أن الذهبي تولَّىٰ دار الحديث التنكزية ونقل النصوص الدالة نفسها، قال في دار الحديث السكرية بعد أن ترجم لشيخها تقي الدين ابن تيمية المتوفَّىٰ سنة ٧٢٨ هـ: «ثم وَلِيَها بعده الحافظ الذهبي وهو محمد. . . ثم وَلِيَ مشيخَةَ السكرية هذه بعدَه الصدرُ المالكي».

قال الشيخ شمس الدين السَّيِّد في «ذيل العبر» (في)[٤] سنة تسع وأربعين وسبع مئة: «والإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكم[٥] المالكي مدرس الشرابيشية وشيخ السكرية بعد الذهبي». انتهى.

وقال الصلاح الصفدي في «تاريخه» في حرف السين: «سليمان بن عبد الحكم. . . إلخ[٦]» ثم قال في «دار القرآن والحديث التنكزية» من كتابه بعد ذكر عمارتها ووقوفها: «قال السيد الحسيني في «ذيل العبر» في سنة تسع وأربعين (وسبع مئة)[٧]: والإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكم المالكي

---

(١) «تنبيه الدارس» ١ / ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) علماً بأنها محرفة في النسخة المطبوعة من «البداية والنهاية» (١٤ / ١٨٤) وهذه النسخة كثيرة الأغلاط كما هو معروف.

(٤) زيادة مني يقتضيها السياق.

(٥) هكذا في الأصل. وفي «ذيل العبر» (ص ٢٧٦) و«ذيل تذكرة الحفاظ» (ص ١١٩): عبد الحكيم. وهو الصحيح.

(٦) النعيمي: «تنبيه» ١ / ٧٧ ـ ٨٠.

(٧) زيادة من عندي يقتضيها السياق.

شيخهُم ومدرِّس الشرابيشية وشيخ التنكزية بعد الذهبي . انتهى . وقد تقدمت ترجمة الذهبي في دار الحديث السكرية .

وقال الصلاح الصفدي في «تاريخه» في حرف السين : « سليمان ابن عبد الحكم . . . إلخ[١]» . وهذا النص الأخير هو الصحيح وهو الذي أورده الحسيني في «ذيل العبر»[٢] .

إن هذا الاختلاط والتحريف بالنصوص جعل الدكتور صلاح الدين المنجد يذهب إلى القول بأن الذهبي خلَف ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ في دار الحديث السكرية وهو وَهْمٌ لا أساس له[٣] .

ومن دُور الحديث التي تولاها الذهبي دارُ الحديث الفاضلية[٤] ، التي أسَّسها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين المتوفَّىٰ سنة ٥٩٦ هـ .

وهكذا تولَّى الذهبيُّ كُبرياتِ دور الحديث بدمشق في أيامه ، لِمَا وصل إليه من المعرفة الواسعة في هذا الفن . وحينما تُوفِّي سنة ٧٤٨ هـ كان يتولَّىٰ مشيخَةَ الحديث في خمسة أماكن هي :

١ ـ مشهد عروة ، أو دار الحديث العُرويَّة ، ودرَّس فيها بعده شرف الدين ابن الواني الحنفي ، نَزَل الذهبي له عنها في مرض موته[٥] .

---

(١) النعيمي : «تنبيه الدارس» ١ / ١٢٧ .

(٢) الحسيني : «ذيل ذيل العبر» ص ٢٧٦ .

(٣) مقدمة الجزء الذي طبعه من «سير أعلام النبلاء» ١ / ٢٢ والطريف أن ابن تيمية لم يكن متولياً لهذه المدرسة سنة ٧٢٨ فقد اعتقل في ١٦ شعبان سنة ٧٢٦ وظل معتقلاً بالقلعة إلى حين وفاته في ليلة العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ (ابن كثير : «البداية» ١٤ / ١٢٣ ، ١٣٥) .

(٤) النعيمي : «تنبيه الدارس» ١ / ٩٤ .

(٥) ابن قاضي شهبة : «الإعلام» الورقة ٨٦ وهي منسوبة إلى شرف الدين محمد بن عروة الموصلي المتوفىٰ سنة ٦٢٠ هـ (النعيمي : «تنبيه الدارس» ١ / ٨٢) .

٢ ـ دار الحديث النفيسية، وقد نزل الذهبي عنها إلى الشيخ شرف الدين ابن الواني الحنفي في مرض موته أيضاً فَدرَّس فيها في ذي القعدة[١].

٣ ـ دار الحديث التنكزية، ودَرَّس فيها بعده الإمام صدر الدين سليمان ابن عبد الحكيم المالكي كما مرَّ بنا قبل قليل[٢].

٤ ـ دار الحديث الفاضلية بالكَلَّاسة، ودَرَّس فيها بعده تلميذُه تقي الدين أبو المعالي محمد بْن رافع بن هجرس السَّلَّامي المتوفَّىٰ سنة ٧٧٤ هـ[٣].

٥ ـ تربة أم الصالح، دَرَّس فيها بعده تلميذه الحافظ أبو الفداء عماد الدين ابن كثير الدمشقي المتوفىٰ سنة ٧٧٤ هـ[٤].

---

(١) ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦.

(٢) وانظر أيضاً ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦.

(٣) ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦، والنعيمي: «تنبيه» ١ / ٩٤.

(٤) قال في كتابه «البداية والنهاية» في حوادث سنة ٧٤٨ هـ: «وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة حضرتُ تربة أم الصالح ـ رحم الله واقفها ـ عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبي، وحضر جماعة من أعيان الفقهاء وبعض القضاة، وكان درساً مشهوداً ولله الحمد والمنة... إلخ» ١٤ / ٢٢٥.

سابعاً ـ منزلة الذهبي العلمية:

لعلَّ خير ما يصوِّر منزلة الذهبي العلمية واتجاهاتِه الفكريةَ هو دراسة آثاره الكثيرة التي خَلَّفها، وتِبيانُ قيمتها مُقارنةً بمثيلاتها، ومدى اهتمام العلماء والدارسين بها في العصور التالية، والمساهمة الفعلية التي قدَّمتها للحضارة الإسلامية.

وسيرة الذهبي العلمية، استناداً إلى آثاره، ذاتُ وجوه متعددة يستبينُها الباحث الفاحص من نوعيَّة تلك الآثار.

وأول ما يُلاحظ الدارسُ هذا العدد الضخمَ من الكتب التي اختصرها والتي تُربي على خمسين كتاباً، مُعظمها من الكتب الكبيرة التي اكتسبت أهمية عظيمة عند الدارسين، والتي تُعدُّ من بين أحسن الكتب التي وُضعت في عصرها وأكثرها أَصالة، مما يدل على استيعاب الذهبي لمؤلفات السابقين، ومعرفته بالجيد الأصيل منها، وتمتُّعه بقدرةٍ ممتازة على الانتقاء.

ومما يثير الانتباه أن مختصرات الذهبي لم تكن اختصارات عادية يغلب عليها الجمود والنقل، بل إن المطَّلع عليها الدارسَ لها برَوِيَّةٍ وإمعان يجد فيها إضافات كثيرة، وتعليقاتٍ نفيسة، واستدراكات بارعة، وتصحيحات وتصويبات لمؤلف الأصل إذا شعر بوهمه أو غلطه، ومقارنات تدل على معرفته وتبحره في فن الكتاب المختصر؛ فهو اختصارٌ مع سد نقص وتحقيق ونقد وتعليق وتدقيق، وهو أمر لا يتأتىٰ إلا للباحثين البارعين الذين أوتوا بسطة في العلم ومعرفة بفنونه.

والذهبي حين يضيف إلى الكتاب المختصر يَشعر بضرورةِ ذلك لسد نقصٍ يعتري ذلك الكتاب. فحينما اختصر ـ مثلاً ـ كتاب «أُسد الغابة في

معرفة الصحابة» لعز الدين ابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٣٠ هـ زاده من عدة تواريخ منها: «تاريخ الصحابة الذين نزلوا حمص» لأبي القاسم عبد الصمد ابن سعيد الحمصي المتوفىٰ سنة ٣٢٤ هـ، و«مسند» الإمام أحمد بن حنبل المتوفىٰ سنة ٢٤١ هـ، و«مسند» بقيّ بن مَخْلَد المتوفىٰ سنة ٢٧٦ هـ، و«طبقات» ابن سعد المتوفىٰ سنة ٢٣٠ هـ، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١ هـ، ومن كتابات ابن سَيِّد الناس المتوفىٰ سنة ٧٣٤[1] هـ. وقال سبط ابن حجر عند كلامه على اختصار الذهبي «للمعجم المشتمل على ذكر شيوخ الأئمة النَّبَل» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١ هـ: «زاده فوائد ومحاسن»[2].

ويجد الباحث في مختصرات الذهبي تعليقات نفيسه، ومن ذلك ـ مثلاً ـ ما عمِلَهُ في كتاب «الكاشف» الذي اختصره من «تهذيب الكمال» لأبي الحجاج المزي المتوفىٰ سنة ٧٤٢ هـ، فعلى الرغم من محافظة الذهبي على روح النص الأصلي، فقد بث فيه من رُوحه ونشر فيه من علمه ما جعله يكاد يكون مؤلَّفاً من تآليفه مخالفاً للأصل المختصر منه في كثير من الأمور.

وآية ذلك أنه علَّق على آراء بعض أئمة الجرح والتعديل فيه تعديلاً أو إبطالاً، كما حَقق كثيراً من التراجم وزادها تدقيقاً لا نجده في الأصل. فضلاً عن بيانِ رأيه في كثير من الرواة على أسس من دراساته الواسعة، وخِبرته العميقة بعلم الحديث النبوي الشريف مما حدا بتاج الدين السبكي أن يصف هذا المختصر بأنه «كتاب نفيس»[3].

---

(١) أنظر أدناه قائمة المختصرات في مؤلفات الذهبي وما كتبناه عنه في كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) «رونق الألفاظ» الورقة ١٨٠.

(٣) «طبقات الشافعية» ٩ / ١٠٤.

وتَظهر براعة الذهبي في النقد والتحقيق في كثير من هذه المختصرات، فمِن ذلك ـ مثلاً ـ ما ظهر في مختصره لكتاب «المستدرك على الصحيحين» لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة ٤٠٥ هـ الذي قصد فيه مؤلفه أن يورد أحاديث على شرط البخاري ومسلم مما لم يذكراه في صحيحيهما، حيث يتبيَّنُ لنا منَ مُطالعة المختصر وتعليقات الذهبي عليه وتخريجاته ونقدهِ أنه لم يصحح من أحاديث الكتاب سوى النصف، وَبيَّن أن نصف النصف الآخر يَصح سنده وإن كان فيه علة، أما الربع الأخير فهو أحاديث مناكير وواهيات لا تصح، بل إن في بعضها أحاديثَ موضوعة[١]. وهذا يعني أن الذهبي قد أعاد دراسة جميعِ أحاديث المستدرك مجدداً ونقَدها، فخرج بهذه النتيجة.

وغالباً ما يقوم الذهبي بتخريج الأحاديث الواردة في الكتب التي يقوم باختصارها، فغالب التخريج في كتاب «تلخيص العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» الذي لخصه من كتاب «العلل» لابن الجوزي المتوفىٰ سنة ٥٩٧ هـ هو من كلام الذهبي[٢]. ولما اختصر الذهبي كتاب «السنن الكبرى» للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ. تكلَّم على أسانيد الكتاب بنفائسَ تدُلُّ على تبحره بهذا الفن، ووضع رموزاً على الحديث لمن خَرَّجه من أصحاب الصحيحين والسنن الأربع، وخرَّج الأحاديث التي لم ترد في هذه الكتب الستة.

وكثيراً ما كان الذهبي يخرِّج تراجم الكتب التي يختصرها في علم الرجال.

---

(١) انظر ما كتبناه عن «مختصر المستدرك» في كلامنا على مؤلفات الذهبي من كتابنا: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) الذهبي: «تلخيص العلل» ورقة ٨٥ (نسخة الأزهر رقم ٢٩٠ حديث).

من ذلك ـ مثلاً ـ ما عمِلَهُ في اختصاره لتاريخ ابن الدبيثي المتوفى سنة ٦٣٧ هـ حيث زاد في كثير من تراجمه ولا سيما الرجال الذين أخذوا عن صاحب الترجمة، وهو ما أغفله ابن الدبيثي في «تاريخه»[١]. كما تظهر مقارنات دقيقة بالكتب والتواريخ التي من بَابته «كتاريخ محب الدين ابن النجار» المتوفىٰ سنة ٦٤٣ هـ الذي ذيَّل به علىٰ تاريخ الخطيب المتوفىٰ سنة ٤٦٣ هـ[٢]، و«وفيات الأعيان»، لابن خَلِّكان المتوفىٰ سنة ٦٨١[٣] هـ، و«التكملة لوفيات النقلة» لزكي الدين المنذري المتوفى سنة ٦٥٦[٤] وغيرها.

أو من كتب الشعر ككتاب «الخريدة» للعماد الأصبهاني القرشي المتوفى سنة ٥٩٦[٥] هـ.

أو من كتابات كبار العلماء الذين أخذوا عن المترجم له، مثل زكي الدين البِرْزالي المتوفى سنة ٦٣٦[٦] هـ، وفخر الدين ابن البخاري المتوفى سنة ٦٩٠ هـ صاحِب «المشيخةِ» المشهورة[٧]، وشهاب الدين أحمد بن إسحاق الأبرقوهي المتوفىٰ سنة ٧٠١ هـ[٨]، وضياء الدين المقدسي المتوفى سنة

---

(١) انظر «المختصر المحتاج» مثلاً ١ / ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٤٧، ١٠١، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٤٨، ١٧٩، ١٩٩.. إلخ.

(٢) انظر «المختصر المحتاج» مثلاً ١/ ٢١، ٤٩، ٥١، ٦٩، ٧٢، ٧٧، ٨٠، ١٠١، ١٣٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨... الخ.

(٣) المصدر السابق، مثلاً ١ / ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه ١/١٥٨.

(٥) «المختصر» ١/٢٢٥.

(٦) «المختصر» مثلاً ٢/٦٢.

(٧) المصدر نفسه، مثلاً ٢/٦٣.

(٨) «المختصر» مثلاً ٢/٣٦.

٦٤٣ هـ[١] وغيرهم كثير.

أو من خطوط العلماء نحو قوله: «قرأت بخط ابن قُدامة»[٢]. فضلاً عما أضاف هو من الأسانيد التي قرأها على شيوخه مما يتصل بتلك التراجم، وهي إضافة أصيلة للترجمة، فهو حينما يقول مثلاً: «وروىٰ لنا عنه بمصر أبو المعالي الأبرقوهي[٣]» أو «روى لنا عنه أبو العباس ابن الظاهري وأبو الحسين اليونيني وعلي بن عبد الدائم ومحمد بن يوسف الإربلي. . . إلخ[٤]» فمعنى ذلك أن هؤلاء الشيوخ قد أخذوا عن صاحب الترجمة[٥].

ومن إضافاته إلى تلك المختصراتِ أيضاً تواريخ وَفيات المترجمين الذين لم يذكر صاحب الكتاب الأصلي وفياتهم.

فنحن نعلم ـ مثلاً ـ أن ابن الدُّبيثي لم يذكر وفاة أحد ممن ذكرهم في تاريخه ممن تأخرت وفاتهُ عن سنة ٦٢١ هـ وهي السنة التي حَدَّث ابن الدبيثي فيها بتاريخه والتي تُمثِّلُ آخر إخراج له[٦]، في حين أن وفيات بعضهم قد تأخرت إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري، فاستخرجَ الذهبي وَفياتهم وذكرها ليكون اختصاره أكملَ ولتكون معلومات الكتاب أتم[٧]. يضاف إلى ذلك أنه يَروي بعض الأحاديث الواردة في هذه المختصرات

---

(١) المصدر نفسه، مثلاً ٢/٣٦، ٦٢.
(٢) المصدر نفسه، مثلاً ١/٦٥
(٣) المصدر نفسه، ١/٢١.
(٤) المصدر نفسه ١/٢٣.
(٥) انظر مزيداً من الأمثلة، «المختصر» مثلاً ١/٧٦، ١٣٠، ١٣٦، ١٤٠، ١٥٢، ٢٢٦، ٢٣١.
(٦) انظر كتابنا: «تاريخ بغداد لابن الدبيثي، منهجه، موارده، أهميته» ص ٤ (بغداد ١٩٧٤).
(٧) انظر «المختصر المحتاج إليه» مثلاً ١/ ٧٦، ٨٦، ١٠٦، ١٣٣، ١٥١، ١٥٢. . . إلخ. ونجد أيضاً ذكراً لوفيات من يرد اسمه عرضاً في بعض الاحيان ١/١٠٣.

بسنده إذا وجد مجالاً لذلك [١].

وأعاد الذهبي تنظيمَ بعض الكتب التي اختصرها، فحينما اختصر كتاب «الكُنىٰ» لأبي أحمد الحاكم المتوفىٰ سنة ٣٧٨ هـ أعاد ترتيبه على حروف المعجم بعد أن أضاف إليه أشياء أخرى مما ليسَ فيه [٢].

كما رتب «المجرد من تهذيب الكمال» على عشر طبقات ورتَّب كل طبقة على حروف المعجم، في حين كان كتاب «تهذيب الكمال» للمِزِّي مرتباً على حروف المعجم [٣].

وقد حَفِظْنا من سيرة الذهبي أنه عُنِيَ بالقراءات ودَرسَها على كبار شيوخ عصره من المقرئين المشهورين حتى أصبح «الأستاذ الثقة الكبير [٤]» فيها. وذكر ابن ناصر الدين المتوفىٰ سنة ٨٤٢ هـ أنه كان «إماماً في القراءات [٥]». لكننا نلاحظ في الوقت نفسه أنه لم يتخرج عليه في القراءات سوى عدد قليل جداً [٦] ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه عُنِيَ بهذه الناحية في مطلع حياته العلمية، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحديث والتاريخ وغيرِهما. ولم نعرف من آثاره في هذا الفن غير كتاب «التلويحات في علم القراءات [٧]» وكتاب «معرفة

---

(١) «المختصر المحتاج إليه» ١ / ٤٩، ٦٥.

(٢) انظر مقدمة نسخة فيض الله رقم ١٥٣١ من الكتاب.

(٣) انظر كلامنا على كتاب «المجرد من تهذيب الكمال» في كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ٢٣٠.

(٤) ابن الجزري: «غاية» ٢ / ٧١.

(٥) «الرد الوافر» ص ٣١.

(٦) ابن الجزري: «غاية» ٢/٧١، قال: «ولم أعلم أحداً قرأ عليه القراءات كاملاً، بل شيخنا الشهاب أحمد بن إبراهيم المنبجي الطحان قرأ عليه القرآن جميعه بقراءة أبي عمرو والبقرة جمعاً. وروى عنه الحروف إبراهيم بن أحمد الشامي ومحمد بن أحمد ابن اللبان وجماعة. وسمع منه الشاطبية يحيى بن أبي بكر البوني وحدث بها عنه في اليمن».

(٧) انظر أدناه كلامنا على آثار الذهبي (القراءات).

القراء الكبار على الطبقات والأعصار» الذي هو إلى كتب التراجم أقرب منه إلى القراءات وإن كانت محتوياته غالباً ما تتعلق بموضوع القراءات. وقد شهد له ابن الجزري بالإحسان فيه[١]، لذلك سَلَخه بأجمعه في كتابه «غاية النهاية» كما نص على ذلك في المقدمة[٢]، ووصَفهُ شمس الدين السخاوي بأنه «كتاب حافل»[٣]. ومع كل ذلك فإنَّ هذا الوجه من حياة الذهبي العلمية هو أضعف الوجوه وأقلها آثاراً.

على أن مكانة الذهبي العلمية وبراعته تظهران في أحسن الوجوه إشراقاً وأكثرِها تألقاً عند دراستنا له مُحدِّثاً يُعنىٰ بهذا الفن، فقد مَهر الذهبي في علم الحديث وجَمع فيه الكتب الكثيرة «حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً[٤]».

وقد رأينا إقباله العظيم عليه وشَرَهَهُ لسماعه، وذاكَ العدد الضخم من الشيوخ الذين حَوتْهُم معجمات شيوخه الثلاثة، والكتب، والأجزاء، والمجاميع الكثيرة التي قرأها على الشيوخ أكثر من مرة. وقد فَتحت له هذه المعرفة الواسعة آفاقاً عظيمة في هذا الفن فاختصر عدداً كبيراً من الكتب، وألَّف عدداً أكبر يستبينه الباحث عند إلقائه نظرة علىٰ قائمة مؤلفاته في هذا المجال. كما ألَّف في مصطلح الحديث كتباً، وخرَّج التخاريج الكثيرة من الأربعينات، والثلاثينات، والعوالي، والأجزاء، ومعجماتِ الشيوخ، والمشيخات، وغيرها مما فصَّلنا القول فيه عتد كلامنا على آثاره[٥].

ومع أن الذهبي قد عاش في عصرٍ غلب عليه الجمود والنقل والتلخيص،

---

(١) «غاية» ٢ / ٧١ .
(٢) المصدر نفسه ٣/١.
(٣) «الإعلان» ص ٥٦٤ .
(٤) ابن حجر: الدرر ٤٢٦/٣.
(٥) كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ١٣٩ فما بعد.

فإنه قد تخلَّص من كثير من ذلك بفضل سَعة دراساته وفطنته.

قال تلميذه صلاح الدين الصفدي المتوفىٰ سنة ٧٦٤ هـ: «لم أجد عنده جمود المحدثين ولا كَوْدنة[١] النَّقَلة بل هو فَقيه النظر، له دُرْبةٌ بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات. وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدىٰ حديثاً يورده حتى يُبيِّن ما فيه من ضعفِ مَتنٍ، أو ظلام إسنادٍ، أو طَعن في رواته، وهذا لم أر غيره يراعي هذه الفائدة فيما يُورده»[٢].

إن هذه البراعة في علم الحديث، والتمكُّن منه ذاك التمكن، جعلتِ الذهبي ينطلق بعد ذلك يجرِّح، ويعدِّل، ويفرِّع، ويصحِّح، ويعلِّل، ويستدرِك على كبار العلماء[٣]، «فدخل في كل باب من أبوابه» على حد تعبير تلميذه تاج الدين السبكي[٤]، حتى أطلق عليه معاصروه «محدِّث العصر[٥]».

وبلغ اعتراف حافظ عصره الإمام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ بفضل الذهبي وبراعته إلى درجة أنه شرب ماء زمزم سائلاً الله أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ وفطنته[٦].

---

(١) الكودنة: البلادة.

(٢) «الوافي» ٢ / ١٦٣.

(٣) الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ» ص ٣٥.

(٤) «الطبقات الوسطى» (ترجمة الذهبي من نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٤).

(٥) السبكي: «الطبقات» ٩/١٠٠، العيني: «عقد الجمان» ورقة ٣٧ (أحمد الثالث رقم ٢٩١١).

(٦) استناداً إلى حديث رسول الله - ﷺ - «ماء زمزم لما شرب له» وقد ذكر ذلك تلميذه السخاوي في «الإعلان» (ص ٤٧٢). وقديماً شرب ابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ ماء زمزم وطلب علماً نافعاً (الذهبي: تذكرة، ٢ / ٧٢١). وقال الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة ٤٠٥: «شربت ماء زمزم وسألت الله أن يرزقني حسن التصنيف» (الذهبي: تذكرة، /٣/ ١٠٤٤). وألف شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي المتوفىٰ سنة ٩٥٣ هـ رسالة في «التزام مالا يلزم فيما ورد في ماء زمزم» منها نسخة في خزانة كتب جستربتي في دبلن ضمن مجموع برقم ٣٣١٧.

ومفهوم التاريخ عند الذهبي يتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث النبوي وعلومه، ويظهر ذلك من كتب الرجال التي يُطلق الذهبي عليها اسم «التاريخ».

وقد أصبح واضحاً أن الغاية الرئيسة من العناية بالرجال تأتي لضبط الرواة أولاً[1]، وهو ما يظهر في معظم مقدمات كتبه في هذا الفن، وهو مفهوم ساد عند المحدِّثين المؤرخين لا سيما في ذلك العصر[2].

وعلى علم الرجال، وعلىٰ آثار الذهبي فيه، قامت شُهرته الواسعة باعتباره مؤرخاً، كما نرى.

وقد خلَّف الذهبي في هذا الفن عدداً ضخماً من الآثار ابتدأها باختصار أمهات الكتب المؤلفة فيه، كالتواريخ المحلية مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي المتوفىٰ سنة ٤٦٣هـ، والذيولِ عليه: لابن السمعاني المتوفىٰ سنة ٥٦٢هـ، وابن الدبيثي المتوفىٰ سنة ٦٣٧هـ وابن النجار المتوفىٰ سنة ٦٤٣هـ. ومنها أيضاً «تاريخ دمشق» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١هـ، و«تاريخ مصر» لابن يونس المتوفىٰ سنة ٣٤٧هـ، و«تاريخ نيسابور» لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة ٤٠٥هـ، و«تاريخ خوارزم» لابن أرسلان الخوارزمي المتوفىٰ سنة ٥٦٨هـ. ومن كتب الوفيات: «التكملة لوفيات

---

(١) انظر كتابنا: «أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين». بغداد، مطبعة الحكومة ١٩٦٦م، وبحثنا: «مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين» المنشور في مجلة الأقلام البغدادية، السنة الأولى، العدد الثالث ١٩٦٥م.

(٢) حينما شعر الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفىٰ سنة ٨٥٢هـ أن من بين مستدركاته على الذهبي في كتابه «المشتبه» أسماء لشعراء وفرسان في الجاهلية وما أشبه ممن ليست لهم رواية حديثية، اعتذر عن ذلك بقوله: «فإن غالب مَنْ ذكرت يأتي ذكره في كتب المغازي والسير والمبتدأ والأنساب والتواريخ والأخبار ولا يستغني طالب الحديث عن ضبط ما يرد في ذلك من الأسماء ولو لم يكن لهم رواية» «تبصير المنتبه» ١٥١٣/٤.

النقلة» لزكي الدين المنذري المتوفىٰ سنة ٦٥٦هـ وصلته للحسيني المتوفىٰ سنة **٦٩٥هـ**. ومن كتب الأنساب: كتاب «الأنساب» لأبي سعد السمعاني المتوفىٰ سنة **٥٦٢هـ**. ومن كتب الصحابة كتاب «أُسد الغابة» لابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٣٠هـ. ومن كتب رجال الصحاح والسنن مثل كتاب «تهذيب الكمال في معرفة الرجال» لأبي الحجاج المِزِّي المتوفى سنة ٧٤٢هـ، و«المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النُّبل» لابن عساكر المتوفىٰ سنة **٥٧١هـ** وغيرها[١]. فكانت هذه المختصرات المادة الرئيسة التي كوَّنت شخصيته العلمية ومعرفته بالعصور السابقة.

أما تراجم المعاصرين فيُعَدُّ الذهبي من بين أحسن الذين كتبوا فيهم، وقد أدرك أهمية هذا الأمر فكان كتابه «المعجم المختص بمحدثي العصر» خيرَ دليل على ذلك.

ولا عبرة بعد ذلك بمن انتقده لتناوُلِه التاريخ المعاصر كابن الوردي[٢]، لأن هذا هو التاريخ الأكثر أهمية وخطراً، وهو الذي يعطي المؤرخ أهميَّته البالغة بين المؤرخين ويميزه عن غيره، وهو مما لم يدركه كثير من المعنيين بالتاريخ ومنهم ابن الوردي.

لقد أنتجت هذه المعرفة الرِّجاليةُ الواسعة مؤلفاتٍ كثيرة لعل من أهمها كتابهُ العظيم «تاريخُ الإسلام ووفياتُ المشاهير والأعلام» الذي هو إلى كتب التراجم أقرب منه إلىٰ التاريخ بمفهومه الحديث، وكتابه النفيس «سير أعلام النبلاء» الذي لم يتضمن غير التراجم، ثم ذلك العدد الضخم من المؤلفات التي عرفناها له.

---

(١) انظر كلامنا على «المختصرات» من كتابنا: الذهبي ومنهجه: ٢١٥ ـ ٢٦٤.

(٢) ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/٣٤٩

ولعل مما يُميز الذهبي عن غيره من بعض مؤلفي كتب الرجال والتراجم أنه لم يقتصر في تأليفه على عصر معين، أو فِئة معينة، أو تنظيم معين، بل تناولت مؤلفاته رجال الإسلام من أول ظهوره حتى عصره، بَلْهَ المعاصرين له.

وهو في كتابته للترجمة فنان تراجمي مَليء بفن التراجم يجد الباحث فيها دقة متناهية في التعبير، وحبكاً للترجمة تَشُدُّ القارىء إليها مع تعدد الموارد وانتقاء لأفضلها وإبداءٍ لآرائه الشخصية فيها[١].

وقد عانى الذهبي كتابة «السيرة» وهو فن خاص له مميزاته التي تجعله يختلف عن كتابة «الترجمة» المجردة، فكتب في سير الخلفاء الراشدين، وأئمة الفقه، والحديث، وغيرهم[٢].

ومعرفة الذهبي الواسعة في الرجال دفعت تاجَ الدين السبكي الذي انتقده في بعض المواضع إلى القول: «إنه كان شيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال، وكأنما جُمعتِ الأمة في صعيد واحد فنظرَها ثم أخذ يُعبِّر عنها إخبارَ من حَضَرها[٣]». وقد ازداد شأنه بعد عصره بحيث اعتُبِرَ هو والمزي مؤرِّخي القرن الثامن اللذين لا ينافسهما أحد[٤]، وعدَّه الإمام السيوطي المتوفىٰ سنة ٩١١هـ رأسَ طبقة ذكر فيها القطب الحلبي المتوفىٰ سنة ٧٣٥ هـ وابنَ سيد الناس المتوفىٰ سنة ٧٣٤ هـ وشمسَ الدين المقدسي المتوفىٰ سنة ٧٤٤هـ

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث عند كلامنا على منهج الذهبي في «السير» وما كتبناه عن منهجه في كتابه «تاريخ الإسلام» في كتابنا المذكور عنه.

(٢) انظر أدناه «السير» من آثار الذهبي.

(٣) السبكي: «طبقات» ٩/١٠١.

(٤) السخاوي: «الإعلان» ص ٦٠٤.

وتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ وعلم الدين البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وشهاب الدين النابلسي المتوفىٰ سنة ٧٥٨[١]هـ وهم من أعلام الحفاظ المحدِّثين المؤرخين، وذكر أن المحدثين في عصره عيالٌ في الرجال وغيرها من فنون الحديث علىٰ أربعة أحدهم الذهبي[٢].

ومع أن براعَة الذهبي التاريخية أكثر ما ظهرت في الرجال فإنه قد درَس التاريخ السياسي، واختصر عدداً من المؤلفات الرئيسية فيه مثل تاريخ أبي شامة المتوفىٰ سنة ٦٦٥هـ وتاريخ أبي الفداء المتوفىٰ سنة ٧٣٢ هـ وغيرهما، وأفاد من معظم التواريخ المعروفة في عصره ودرسها كسيرة ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ وتواريخ: الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ وابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٣٠هـ وابن الجوزي المتوفىٰ سنة ٥٩٧ هـ وغيرها مما يطول تعداده[٣].

وقد ظهرت هذه الكتابات في تواريخه المرتَّبة على الحوادث والوفيات مثل «تاريخ الإسلام» و«العبر»و «دول الإسلام» وغيرها. ونَستبين من نطاق كتاباته هذه أنه كان مؤرخاً جوَّال الذهنية استطاع استيعاب عصور التاريخ الإسلامي من أول ظهوره حتى زمانه الذي كتب فيه مؤلفاته، وهي فترة تزيد على السبعة قرون، فألَّف في كل هذه العصور بعد أن درسها دراسة عميقة قامت على دعامتين رئيستين هما: الرواية الشفوية والكتب وهذا أمر لم يَتأَتَّ لكثير من العلماء الذين سبقوه أو عاصروه.

وحينما كتب الذهبي كتابه «تذكرة الحفاظ» ورتَّبه على الطبقات تكلم في

---

(١) السيوطي: «طبقات الحفاظ» ورقة ٨٥ فما بعد (نسخة الاسكندرية).

(٢) المصدر نفسه، ورقة ٨٦.

(٣) انظر كلامنا على نهج الذهبي في الموارد من كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ٢٨٤ فما بعد.

نهاية أكثرها على الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في الوقت الذي تناولته فأجمل الأوضاع العامة بفقراتٍ قليلة دلَّت على سعة أفقه التاريخي وقدرته الفائقة على تصوير حقبة كاملة من الزمن وعلى امتداد العالم الإسلامي المترامي الأطراف بعبارة وجيزة. وهذا أمر لا يتأتىٰ إلا لمن استوعب العصر ودرسه دراسة عميقة بحيث حَصل له مثل هذا التصور والفهم العام(١).

ثم إن هذه المعرفة الرجالية الواسعة مع ما أوتي من ذكاء وإدراك واسعين جَعلتْ منه ناقداً رِجالياً ماهراً، تدلُّ علىٰ ذلك مؤلفاته في النقد وأصوله والتي مِن أبرزها كتابه العظيم «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» الذي اعتبره معاصروه(٢) ومن جاءَ بعدهم(٣) من أحسن كتبه وأجلِّها. وقد تناوله عدد كبير من الحفاظ والعلماء والمعنيين بالنقد استدراكاً وتعقيباً وتلخيصاً بحيث قال شمس الدين السخاوي: «وعوَّل عليه من جاء بعده(٤)».

وللذهبي التفاتات بارعة في أصول النقد؛ فقد ألَّف رسالة في «ذكر من يؤتمن قوله في الجرح والتعديل» تكلَّم فيها على أصول النقد وطبقاتِ النُّقاد وكيفية أخذ أقوالهم(٥).

وأورد في مقدمة «الميزان» عباراتِ الجرح والتعديل من أعلى مراتبها إلى أدناها وبيَّن مدلولاتها في النقد(٦). وهو في كتبه يشرح بعض هذه الأصول،

---

(١) انظر مثلاً الذهبي: «تذكرة الحفاظ» ١ /٧٠، ١٥٨ - ١٦٠، ٢٤٤، ٣٢٨، ٢ / ٥٣٠، ٦٢٧ - ٦٢٨، ٤ /١٢٦٦، ١٤٨٥

(٢) السبكي: «طبقات» ٩ /١٠٤، الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ» ص ٣٥

(٣) ابن حجر: «لسان الميزان» ١ /٤

(٤) «الإعلان» ص ٥٨٧ وانظر كلامنا على الميزان في كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ١٩٣ - ٢٠١

(٥) نسخة أيا صوفيا رقم ٢٩٥٣

(٦) «ميزان الاعتدال» ١ /٣ - ٤

من ذلك مثلاً ماذكره في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي، قال: «شيعي جَلْد، ولكنه صدوق فَلَنا صِدقه، وعليه بدعته. وقد وثَّقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وأبو حاتم، وأورده ابن عدي، وقال: كان غالياً في التشيع. وقال السعدي: زائغ مجاهر. فلقائل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع، وحدُّ الثقة العدالة والإتقان؟ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة؟ وجوابه أن البدعة على ضربين: فبدعة صغرىٰ كغُلوِّ التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولاتحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رُدَّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مَفسدة بينة. ثم بِدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه، والحط علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يُحتج بهم ولا كرامة. . . ولم يكن أبان بن تغلب يعرض للشيخين أصلاً، بل قد يعتقد علياً أفضل منهما[1]».

وقال في ترجمة أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: «أحد الأعلام صدوق، تكلّم فيه بلا حجة، ولكن هذه عقوبة من الله لكلامه في ابن منده بهوىٰ، قال الخطيب: «رأيت لأبي نعيم أشياء يتساهل فيها، منها أنه يطلق في الإجازة أخبرنا ولا يبيّن. وقلت (يعني الذهبي): هذا مذهب رآه أبو نعيم وغيره، وهو ضرب من التدليس. وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع، لا أحب حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها. . . قلت: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوةٍ أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سَلِمَ أهله من ذلك، سوى الأنبياء

---

(١) « ميزان الاعتدال » ١ /٥ ـ ٦ وانظر أمثلة أخرى في « معجم الشيوخ » م ١ الورقة ٢٥٦ ، م ٢ الورقة ٧٢ ، « وتاريخ الإسلام » الورقة ٩٣ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /٩) .

والصديقين، ولو شئتُ لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم[١]».

ولم يكن الذهبي ليصدر اتباعاً لآراء الآخرين في النقد فهو يخالفهم في بعض الأحيان حين لا يجد لآرائهم من سند قوي يؤيدها؛ فمن ذلك ـ مثلاً ـ ما جاء في ترجمة زيد بن وهب الجهني، أحد التابعين، وهو الذي تكلم فيه أبو يعقوب الفسوي في «تاريخه» وذكر أن في حديثه خللاً كبيراً، فقال: «ولا عبرة بكلام الفسوي[٢]» وأورد في «ميزان الاعتدال» مآخذ الفسوي عليه وردَّ عليها ثم قال: «فهذا الذي استنكره الفسوي من حديثه ما سُبق إليه، ولو فتحنا هذه الوساوس علينا لرددنا كثيراً من السنن الثابتة بالوهم الفاسد[٣]» والميزان مليء بمثل هذه النقدات لامجال لتكثير الأمثلة منها. بل وجدناه يؤلف كتابين، يرد فيهما على جملة من علماء الجرح والتعديل هما: «رسالة في الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم»، وكتاب «من تكلّم فيه وهو موثق».

ولم يقتصر نقد الذهبي على الرجال حسب، بل تعدّىٰ ذلك إلى نقد الموارد التي يطالعها أو يختصرها أو يأخذ منها، وهو ما يُعرف اليوم بنَقد المصادر؛ من ذلك مثلاً نقده لكتاب «الضعفاء» لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ الذي اختصره وذيَّل عليه، فقال في ترجمة أبان بن يزيد العطار: «قد أورده أيضاً العلامة ابن الجوزي في «الضعفاء» ولم يذكر فيه أقوال مَن وثَّقه. وهذا من عيوب كتابه يسرُد الجرح ويَسكت عن التوثيق»[٤]. وقال في ترجمة حفص

---

(١) نفسه، ج ١ ص ١١١ وانظر «تاريخ الإسلام» الورقة ٣٣٤ (أيا صوفيا ٣٠٠٨).

(٢) الذهبي: «تذكرة» ١ / ٦٧

(٣) الذهبي: «ميزان الاعتدال» ٢ / ١٠٧ وانظر: «تاريخ الإسلام» الورقة ٤٨٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٩).

(٤) المصدر نفسه، ١ /١٦. وقد تكلم في هذه المسألة ابن حجر في «اللسان» فراجعه هناك تجد فائدة.

ابن بغيل من الميزان : «قال ابن القطان : لا يُعرف له حال ولا يعرف قلت: لم أذكر هذا النوع في كتابي هذا؛ فإن ابن القطان يتكلم في كل من لم يَقُل فيه إمامٌ عاصرَ ذاك الرجل أو أخذ عمن عاصره مما يدل على عدالته. وهذا شيء كثير، ففي الصحيحين من هذا النمط خلقٌ كثير مستورون، ما ضعَّفهم أحد ولا هم بمجاهيل[1]». وانتقد الذهبي كتاب «الضعفاء» لأبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي المتوفى سنة ٣٢٢هـ لإيراده بعضَ الثقات ومنهم حافظ عصرِه عليٌّ بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ فقال في ترجمة ابن المديني من الميزان: «ذكره العُقيلي في كتاب الضعفاء فبِئس ما صَنع» وردَّ عليه حينما نقل قول عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كان أبي حدثنا عنه، ثم أمسك عن اسمه . . . ثم ترك حديثَه»، بقوله: «بل حديثُه عنه في مسنده» وهذا رد مفحم من الذهبي بل قال بعد ذلك: «وهذا أبو عبد الله البخاري ـ وناهيك به ـ قد شَحنَ صحيحَهُ بحديث ابن المديني[2]».

ولا يقتصر الذهبي عند نقد الكتب على إيراد مساوئها، بل كثيراً ما يذكر محاسنها ومميزاتها؛ فقد سبق أن قال إن كتاب العقيلي مفيد[3]، وقال عن كتاب «الكامل» لابن عدي المتوفى سنة ٣٦٥هـ إنه «أكمل الكتب وأجلها في ذلك[4]»، وقال في ترجمة الدَّارَقطني المتوفىٰ سنة ٣٨٥هـ: «وإذا شئت أن تتبين براعة هذا الإمام الفَرْدِ فطالِع العِللَ له فإنك تندهش ويطول تعجُّبُك[5]».

---

(١) « ميزان الاعتدال » ١ /٥٥٦
(٢) « ميزان الاعتدال » ٣ / ١٣٨ ـ ١٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ١ /٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ١ / ٢ .
(٥) « تذكرة الحفاظ » ٣ /٩٩٣ ـ ٩٩٤ .

ونحن نعلم أيضاً أن الذهبي قد عانىٰ النقد في تآليف خاصة ردَّ بها علىٰ كتب مُعَيَّنة، فقد ألَّف كتاباً في الرد علىٰ ابن القطان المتوفىٰ سنة ٦٢٨هـ[١] كما ألف كتاب «مَن تُكُلِّم فيه وهو موثَّق» رد به على جملة من كتب الضعفاء كما بيَّنا.

وَبِسَبب هذا الذي قدمنا ذِكره من براعةِ الذهبي في النقد والتمكن منه، فقد أصبح «شيخَ الجرح والتعديل» كما ذكر تاج الدين السبكي[٢]. وقال ابن ناصر الدين المتوفىٰ سنة ٨٤٢هـ: «ناقد المحدِّثين وإمام المُعدِّلين والمُجرحين . . .وكانَ آيةً في نقدِ الرِّجال، عُمْدَةً في الجرح والتعديل[٣]»، وقال شمس الدين السَّخاوي المتوفىٰ سنة ٩٠٢: «وهو مِنْ أهل الاستقراء التام في نَقد الرجال[٤]»، فأصبحت أقوال الذهبي فيمن يُترجم لهم تُعتبر عند النقاد والمؤرِّخين الذين جاءوا بعده أقصى حدود الاعتبار، وظهرت بصورة جَلِيَّة في المؤلفات التي كُتِبت بعد عصره، ولا سيما في مؤلفات مؤرخ القرن التاسع وحافِظه ابن حجر العسقلاني المتوفىٰ سنة ٨٥٢هـ[٥].

وتُطالعنا عند قراءة كُتب الذهبي العديدُ من الأمثلة التي تدل على قوته في البحث والاستدلال، ومناقشة آراء الغير بروح علمي يعتمد الدليل والإقناع، من ذلك ـ مثلاً ـ مناقشة لمن اتَّهم الحافظَ أبا حاتِمٍ محمد بن حِبان البُسْتِي التميميَّ المتوفى سنة ٣٥٤هـ بالزَّندقة لقولِهِ: «إن النبوة هي العلم والعمل» وما تبع ذلك من كتابة الخليفة أمراً بقتله لهذا السبب، قال الذهبي: «وهذا

---

(١) الذهبي: «الرد على ابن القطان» (نسخة الظاهرية، مجموع رقم ٧٠).
(٢) «الطبقات» ٩ / ١٠١.
(٣) «الرد الوافر» ص ٣١.
(٤) «الإعلان» ص ٧٢٢.
(٥) انظر مثلاً كتابه: «لسان الميزان».

أيضاً له مَحْمَلٌ حَسَنٌ ولم يرد حَصْرَ المبتدأ بالخبر، ومثله: الحج عرفة. فمعلوم أن الرجل لا يصير حاجّاً بمجرد الوقوف بعرفة، وإنما ذُكر مهمُّ الحج، ومُهِمُّ النبوة؛ إذ أكمل صفات النبي العلم والعمل، ولا يكون أحدٌ نبياً إلا أن يكونَ عالماً عاملاً. نعم، النبوة موهبة من الله تعالى لمن اصطفاه من أُولي العلم والعمل لا حيلة للبشر في اكتسابها أبداً، وبها يتولد العلم النافع الصالح، ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن أبي حاتم لا يسوغ، وذلك نَفَس فلسفي[1]». ومن الأمثلة الطريفة أيضاً مناقشة لمسألة معرفة النبي ـ ﷺ ـ الكتابَة، فقال في ترجمة الحافظ العلامة أبي الوليد سُليمان بن خلف الباجي المتوفَّىٰ سنة ٤٧٤هـ: «ولما تكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري قال بظاهر لفظه، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر ابن الصائغ وكَفَّره بإجازة الكَتْبِ على رسول الله ـ ﷺ ـ النبيِّ الأميِّ وأنه تكذيبٌ بالقرآن، فتكلَّم في ذلك من لم يفهم الكلام حتى أطلقوا عليه الفتنة وقبَّحوا عند العامة ما أَتىٰ به خطباؤهم في الجمع وقال شاعرهم:

برئتُ ممن شـرىٰ دنيا بـآخرة وقال: إن رسول الله قد كتبا

وصَنَّفَ أبو الوليد رسالةً بَيَّن فيها أن ذلك غيرُ قادح في المعجزة فرجع بها جماعة.

قلت: ما كل من عَرَف أن يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه أمياً لأنه لا يسمى كاتباً. وجماعـة من الملوك قد أدمنوا في كتابة العلامة وهم أمِّيون، والحُكْمُ للغَلَبة لا للصورة النادرة، فقد قال عليه السلام: «إنا أمة أمِّية» أي أكثرهم كذلك لندور الكتابة في الصحابة، وقال تعالى: ﴿هو الذي بعثَ في

---

(١) الذهبي: «تذكرة» ٣ /٩٢١ ـ ٩٢٢ وراجع «تاريخ الإسلام» ورقة ١٦ ـ ١٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١٠) وانظر أيضاً «ميزان الاعتدال» ج ٣ /٥٠٧ ـ ٥٠٨ ففيه تفصيل أكثر في هذه المسألة.

الأُميين رسولاً منهم﴾(١).

وقال في موضع آخر معقباً على هذه المسألة أيضاً: «قلتُ: وما المانع من جواز تعلم النبي - ﷺ - يسيرَ الكتابة بعد أن كان أُمياً لا يدري ما الكتابة، فلعله لكثرة ما أملَى على كُتّاب الوحي وكُتّاب السننِ والكتبِ إلى الملوك عرفَ من الخطِّ وفهمه وكتب الكلمة والكلمتين كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية محمد بن عبد الله، وليست كتابتُه لهذا القدر اليسير ما يخرجه من كونه أُمياً ككثير من الملوك أميين ويكتبون العلامة»(٢). ومثل هذا كثير في كتب الذهبي.

وقد حفظنا من سيرة الذهبي أنه كان سَلَفِيَّ العقيدة قد أثرت فيه البيئة الدمشقية وصُحبتُه لشيخ الإسلام ابن تيمية. ومع أن الذهبي لم يكن متحمِّساً للخوض في مضايق العقائد ويَعْتبر السكوت فيها أولى وأسلم (٣)، لكنه في الوقت نفسِه أبدى آراءه في كثير من المواضع، وألَّف فيها. وقد اعتبر «الاعتزال بِدعة»(٤) وهاجم الفلاسفة اليونانيين هجوماً عنيفاً(٥). وكان على غاية من الإعجاب بأعمال السَّلف وإنجازاتهم(٦)، واهتم اهتماماً كبيراً بذكر أخبار العلماء في المحنة التي أصيبوا بها حينما أعلن المأمون رأيه وألزم الناس القولَ بخلق القرآن، وبَيَّن مواقفهم الجريئة من هذا الأمر(٧).

---

(١) الذهبي: «تذكرة» ٣ /١١٨١ - ١١٨٢. والآية الكريمة من سورة الجمعة (٢)
(٢) المصدر نفسه، ٢ /٧٤٢
(٣) «تذكرة» ٢ / ٦٠٠، ٤ /١٤٩٩
(٤) انظر مثلاً «تذكرة الحفاظ» ٣ / ١١٢٢
(٥) «أهل المئة فصاعداً» ص ١١٥
(٦) «تذكرة الحفاظ» ج ٢ /٦٢٧ - ٦٢٨
(٧) انظر مثلاً «تذكرة» ١ / ٤٧٦، ٤٧٧، ٥٦١، ٥٨٩، ٢ / ٧٣٠، ٧٣٣، ٧٤٧ ... الخ.

لقد اختصر الذهبي عدداً من الكتب المهمة في العقائد منها - مثلاً - كتاب «البعث والنشور» وكتاب «القدر» اللذان للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ، وكتاب «الفاروق في الصفات» لشيخ الإسلام الانصاري المتوفى سنة ٤٨١هـ وكتاب «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» لرفيقه وشيخه تقي الدين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.

وخلَّف الذهبي عدداً من الآثار في هذا العلم منها كتاب «الكبائر وبيان المحارم» وكتاب «الأربعين في صفات رب العالمين» وكتاب «العرش» و«كتاب مسألة الوعيد» وغيرها. ولعل من أشهرها كتابه المعروف «العلو للعلي الغفار» الذي يُعد أوسع هذه الكتب وأكثرها شهرة[١].

بحث الذهبي العقائد على طريقة السلف من أهل الحديث، فكانت المادة الرئيسية التي تُكوِّن هذه الكتب والأدلة المستعملة فيها من الأحاديث النبويّة الشريفة.

وقد انتُقد الذهبي من قبل مخالفيه على تأليفه لبعض هذه الكتب واعتقاده مثل هذه العقائد، قال الشيخ محمد زاهد الكوثري عن كتاب «العلو»: «ولو لم يُؤلِّفه لكان أحسن له في دينه وسمعته لأن فيه مآخذ كثيرة، وقد شهر عن الذهبي أنه كان شافعي الفروع حنبلي المعتقد[٢]».

ولم يشتهر الذهبي بوصفه فقيهاً أو عالماً بالفقه مع أنه دَرَسه على أعلام العصر آنذاك مثل الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، وبرهان الدين الفَزَاري، وكمال الدين ابن قاضي شُهبة، وغيرهم[٣]. وقدْ ألَّف في

---

(١) انظر أدناه كلامنا على آثار الذهبي.

(٢) «ذيل تذكر الحفاظ» ٣٤٨ هامش ٢

(٣) انظر أعلاه كلامنا على سيرته و «رونق الألفاظ» لسبط ابن حجر، ورقة ١٨٠

أصوله ، وعُني باختصار كتاب « المحلّى » لابن حزم [١] ، وهو من كبار الكُتب الفقهية ، وألّف عدداً من الكتب والأجزاء التي تناولت موضوعاتٍ فقهية ، وكانت له خواطر وآراء ونقَدات جاءت في ثنايا كتبه ، من ذلك مثلاً كلامه في مسألة الطلاق ومناقشته لابن تيمية [٢] . وهو كغيره من علماء الحنابلة يعتبر القرآن والحديث هما أساس الفقه ، ويَظهر مفهومُ الفقه عند الذهبي واضحاً في بيتين من الشعر له ذَكَرَهُما غير واحد ممن ترجم له وهما :

الفقه قال اللهُ قالَ رسولُه إنْ صَحَّ والإجْماعُ فَاجْهَد فيه
وحذارِ من نَصْبِ الخِلافِ جَهَالةً بَيْنَ النَّبِيِّ وَبيْنَ رأْيِ فَقيهِ [٣]

وهذا الذي قدمناه لا يعني أن الذهبي لم يكن عارفاً بالفقه ، لكنه كان عَزُوفاً عنه لانشغاله بالحديث وروايته الذي هو الأصل الثاني للفقه بعد الكتاب العزيز ، قال ابن ناصر الدين المتوفى سنة ٨٤٢هـ: « له دُرْبة بمذاهب الأئمة وأرباب المقالات قائماً بين الخلف بنشر السنة ومذهب السلف [٤] » .

ولغة الذهبي في كتبه لغة جيدة قياسياً بالعصر الذي عاش فيه ، ويكفي أننا قلّما وجدنا له لحناً في كتبه .

وهو باعتباره محدثاً كبيراً وناقداً ماهراً دقيقٌ في تعابيره ، لما لذلك من أهمية في وضع الكلمة المناسبة أو العبارة في موضعها الملائم لا سيما في تَحْبير التراجم ، فضلاً عن أسلوبه السلس المُمتع لمن أدمن قراءة مثل هذه الكتب .

---

(١) وهو كتاب « المستحلى في اختصار المحلى » وانظر أدناه كلامنا على آثار الذهبي .
(٢) الذهبي : « تذكرة الحفاظ » ٢ /٧١٣ ـ ٧١٥
(٣) ابن ناصر الدين : « الرد الوافر » ص ٣١ . الصفدي : « الوافي » ٢ /١٦٦
(٤) المصدر نفسه .

وقد عُنيَ الذهبي في مطلع حياته العلمية بروايةِ الشعر وأورد طائفةً من الأشعار عن شيوخه (١) . وذكرتْ لنا مصادرُ ترجمته بعضاً من نظمه في المدح (٢)، والرثاء (٣) . وله شِعرٌ تعليمي ، فقد عَلِمْنا أنه نَظم أسماء المُدَلِّسين بقصيدة أوردها السبكي في طبقاته (٤) ، كما نَظم أسماء الخُلفاء بقصيدة أخرى (٥) . وكان كثيرَ الاعتناء بالشعراء تدل على ذلك تراجمهم الواسعة في كتابيه « تاريخ الإسلام » « وسير أعلام النبلاء » والنماذجُ الشعرية الكثيرة التي أوردها وعنايتُه الفائقة بتتبع دواوين الشعراء بحيث قال في ترجمة أبي الحسن محمد بن المظفر البغدادي الخرقي في وفيات سنة ٤٥٥هـ« ولا يكاد يُوجد ديوانُه (٦) » .

وكان للذهبي خط مُتْقَنٌ قد أُعجب به علم الدين البِرْزالي منذ أن بدأ الذهبي يطلب العلم (٧) . وقد وصل إلينا الْكثير من كتبه وكتب غيرِه مكتوباً بخطه ، وهو وإن لم يكن جميلاً مراعياً لأصول الخطاطين والْكُتَّاب ، لكنه يمتاز بالدقة والإتقان لا سيما للذي يُدمن عليه .

---

(١) انظر مثلاً « معجم الشيوخ » م ١ ورقة ٣ ، ٧ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٩ . م ٢ ورقة ١ ـ ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٦ ـ ٩٩

(٢) من بين الذين مدحهم الذهبي ووصل إلينا شعره فيهم : إسحاق بن أبي بكر بن ابراهيم الأسدي الحلبي الحنفي النحاس المتوفى سنة٧١٠هـ (معجم الشيوخ ، م ١ ورقة ٣٤) وتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ وولدهالتاج المتوفى سنة ٧٧١هـ (طبقات السبكي ، ج ٩ ص ١٠٦ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ، ورقة ٨٦) والبِرْزالي (ابن ناصر الدين : الرد الوافر ، ص ١٢٠) .

(٣) من ذلك قصيدته في رثاء رفيقه وشيخه ابن تيميةالمتوفى سنة ٧٢٨هـ (ابن ناصر الدين : « الرد الوافر » ص ٣٥ ـ ٣٦ و « التبيان » ورقة ١٦٥) .

(٤) ٩ /١٠٧ ـ ١٠٩ .

(٥) « تاريخ الإسلام » ورقة ١٧٩ (أحمد الثالث ٢٩١٧ / ١١) .

(٦) السخاوي : « الإعلان » ص ٥٤٧ .

(٧) الذهبي : « معجم الشيوخ » م ٢ الورقة ٢٥ ، ابن حجر : «الدرر» ٣ /٣٢٣ .

وعُرف الذهبي بزهده وورعه وَديانته المتينة ، وقد رأينا عند دراستنا لمجمل سيرته أنه كان يأنس إلى الاجتماع بمشاهيرِ الفقراء والصوفية من ذوي الدِّيانة والتمسك بالآثار .

قال تلميذه تقي الدين ابن رافع السَّلّامي المتوفى سنة ٧٧٤هـ: « كان خَيِّراً صالحاً متواضعاً حَسَن الخلق حلو المحاضرة ، غالبُ أوقاته في الجَمْع والاختصار والاشتغال بالعبادة ، له وِردٌ بالليل ، وعندَه مروءة وعصبية وكرم (١) » وقال الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ: « مع ما كان عليه من الزهد التام والإيثار العام والسَّبق إلى الخيرات والرَّغبة بما هو آت (٢) » ويكفي الذهبي أنه أفنى حياته في دراسة حديث رسول الله - ﷺ - وتدريسه .

لقد أصبحتْ كُتب الذهبي متداولةً في عصره والعصور التالية له ، واعتُبرت من أعظم الموارد التي استقى منها الكُتَّاب الذين جاءوا بعده .

قال ابن حجر : « ورغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسَببها وتداولوها قراءةً ، ونَسْخاً ، وَسَماعاً (٣) » .

وقال تلميذه الحسيني : « وقد سار بجملةٍ منها الركبان في أقطار البلدان (٤) » . وحسْبُنا أن نلقي نظرةً عَجْلىَ على المُستدركات والتلخيصات والذيول التي عُملت على كتبه لنُدرك أهميتها البالغة .

وكان الذهبي مدرسةً قائمة بذاتها خرَّجتِ العديد من الحفاظ والعلماء . وقد أتاحت له معرفته العظيمة الواسعة بالحديث وعلومه والتاريخ وفنونه مكانةً

---

(١) سبط ابن حجر : « رونق الألفاظ » الورقة ١٨٠ .
(٢) « عقود الجمان » (نسخة مكتبة فاتح رقم ٤٤٣٥) .
(٣) ابن حجر : « الدرر » ٣ / ٤٢٧ .
(٤) « ذيل تذكرة الحفاظ » ص ٣٦ .

مرموقة بين أساتيذ العصر ، فأَمَّهُ طلبةُ العلم من كل حَدب وصوب .

ونحن نعلم أن الذهبي تولى مناصب تدريسية كثيرة ، نعرف منها مشيخَة الحديث في تربة أم الصالح ، ودار الحديث الظاهرية ، والمدرسة النفيسية ، ودار الحديث التنكزية ، ودار الحديث الفاضلية ، ودار الحديث العُروية . وقد أتاحت له هذه المناصب أن يَدْرُسَ عليه عددٌ كبير من الطلبة يفوق الحصر ، قال تلميذه الحسيني : « وحَمَل عنه الكتابَ والسُّنةَ خلائقُ [1] » وقال ابن قاضي شُهبة الأسدي : « سمع منه السُّبكي والبِرْزالي والعَلائي وابنُ كثير وابنُ رافع وابن رَجَب وخلائق من مشايخه ونُظَرائه . . . وتخرَّج به حُفّاظ [2] » . وإنَّ كُتُب القرن الثامن لتَزخر بمئاتٍ من تلاميذ الذهبي النُّجُب لم نجد في إيرادهم كثيرَ فائدةٍ في مثل هذا البحث .

ونرى من المفيد أن نقتطف في نهاية هذا الفصل آراءَ العلماء فيه لما لذلك من أهمية في تقويمه ، وكنا نَقَلْنا في أثناء هذا البحث بعضاً منها ، فقد وصفه رفيقه وشيخه عَلَم الدين البِرْزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ في « معجم شيوخه » ـ والذهبي ما زال في مطلع حياته العلمية ـ بقوله : « رجلٌ فاضلٌ ، صحيحُ الذِّهن . اشتغلَ ورحلَ ، وكتبَ الكثير . وله تصانيف واختصارات مفيدة . وله معرفةٌ بشيوخ القراءات [3] » . وقال تلميذه صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ: « الشيخ الإمام العلامة الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي . حافظٌ لا يجارىٰ ولافِظٌ لا يُبارى ، أتقنَ الحديثَ ورجالَهُ ، ونظر عِلَلَهُ وأحوالَهُ ، وعَرَّف تراجم الناس ، وأَزالَ الإبهام في تواريخهم والإلباس . ذِهنٌ يتوقد

---

(١) « ذيل تذكرة الحفاظ » ص ٣٦ .

(٢) « الإعلام » م ١ ورقة ٩٠ (نسخة باريس ١٣٩٨) .

(٣) سبط ابن حجر : « رونق الألفاظ » ورقة ١٨٠ .

ذكاؤه ، وَيصِحُّ إلى الذَّهَب نسبَتُه وانتماؤُه . جَمع الكثير ، ونفعَ الجَمَّ الغفير ، وأكثر من التصنيف ، ووفَّر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف . . . اجتمعتُ به وأخذتُ عنه وقرأتُ عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده جُمُود المحدثين ولا كَوْدَنَة النقلة » [١] .

وعلى الرغم من مخالفة تاج الدين السبكي لشيخِه الذهبي في بعض المسائل وردِّه عليه ، فإنه قال في حقه : « شيخُنا وأستاذُنا ، الإمام الحافظ . . . محدِّث العصر . اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ ، بينهم عموم وخصوص : المِزِّي والبِرْزالي والذهبي والشيخ الإمام الوالد ، لا خامس لهؤلاء في عصرهم . . . وأما أستاذنا أبو عبد الله فبَصَرٌ لا نظير له ، وكنزٌ هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ، إمامُ الوجود حِفظاً ، وذَهَبُ العصر معنى ولفظاً ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل . . . وهو الذي خرَّجنا في هذه الصناعة ، وأدخلنا في عداد الجماعة [٢] » ، وقال أيضاً : « وسمع منه الجمع الكثير . وما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسَخت فيه قدمه ، وتعِبَ الليل والنهار ، وما تعِبَ لسانه وقلمه ، وضُربت باسمه الأمثال ، وسار اسمُه مسير لقبِه الشمس إلا أنه لا يتقلص إذا نزل المطر ، ولا يُدبر إذا أقبلت الليالي . وأقام بدمشق يُرْحَل إليه من سائر البلاد ، وتُناديه السؤالات من كل ناد » [٣] . ووصفه تلميذُه الحسيني المتوفى سنة ٧٦٥هـ بأنه « الشيخ الإمام العلامة شيخ المحدثين قُدوة الحفاظ والقراء محدِّث الشام ومؤرخه ومفيده [٤] » وقال في موضع آخر : « وكان أحد

---

(١) « الوافي » ٢ /١٦٣ .
(٢) « الطبقات » ٩ / ١٠٠ ـ ١٠١
(٣) المصدر نفسه ، ٩ /١٠٣
(٤) « ذيل تذكرة الحفاظ » ص ٣٤

الأذكياء المعدودين والحفاظ المبرزين [١] » . وقال تلميذه عماد الدين بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ : « الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين . . . وقد خُتِم به شيوخ الحديث وحُفَّاظه [٢] » . وحينما قَدِمَ العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الأصل الأطرابلسي [٣] إلى دمشق سنة ٧٣٤هـ ودَرَسَ على الذهبي في تلك السنة قال فيه :

ما زلت بالسَّمع أهواكُم وما ذُكرت ... أخبارُكم قط إلا ملْتُ من طَرَبِ

وليسَ من عجَبٍ أنْ مِلْتُ نحوَكُم ... فالنَّاس بالطَّبع قد مَالوا إلى الذَّهَب [٤]

ووصَفه الحافظ ابن ناصر الدين المتوفى سنة ٨٤٢هـ بأنه « الحافظ الهُمام مفيد الشام ، ومؤرِّخ الإسلام [٥] » . وقال ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ « قرأتُ بخط البدر النابلسي في مشيخته : كان عَلّامة زمانه في الرجال وأحوالِهم حديد الفهم ثاقب الذهب وشُهرته تغني عن الإطناب فيه [٦] » . وقال بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ : « الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ المؤرخ شيخ المحدّثين [٧] ». وذكره سبط ابن حجر المتوفى سنة ٨٩٩هـ في « رونق الألفاظ » وبالغ في الإطناب فيه ، وقال : « الشيخ الإمام العالم العلامة حافظ الوقت الذي صار هذا اللقب عَلَماً عليه.. . فللّه دره من إمام محدث ... فكم دخل في جميع الفنون وخرّج وصحَّح ، وعَدَّل وجَرَّح ، وأتقنَ هذه الصناعة ... فهو الإمامُ سيدُ الحفاظ إمام المحدثين قدوة الناقدين » . وقال في موضع آخر :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦

(٢) « البداية والنهاية » ١٤ /٢٢٥

(٣) توفي سنة ٧٧٤هـ وقد ترجمه ابن حجر في « الدرر » ٤ / ٣٠٦ - ٣٠٧

(٤) ابن ناصر الدين : « الرد الوافر » ص ٣١ - ٣٢

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣١

(٦) الدرر ، ٣ / ٤٢٧

(٧) « عقد الجمان » ورقة ٣٧ (نسخة أحمد الثالث ٢٩١١) .

« وكتبَ بخطه كثيراً من الأجزاء والكتب وحَصَّل الأُصول وانتقىٰ على جماعة من شيوخه . . . وعُنِيَ بهذا الفن أعظم عِناية ، وبَـرَعَ فيه وخـدَمَهُ الليـلَ والنهار [1] » .

(١) الورقة ١٨٠

ثامناً . وفاته وأولاده :

أَضَرَّ الذهبي في أُخريات سِنِيِّ حياته ، قبلَ موته بأربع سنين أو أكثر ، بماءٍ نزلٍ في عينيه ، فكان يتأذّى وَيغضب إذا قيل له : لو قَدحت هذا لرجَع إليك بصرك ، ويقول : ليس هذا بماء ، وأنا أعْرَفُ بنفسي ، لأنني ما زال بصري ينقص قليلاً قليلاً إلى أن تكامل عدمه [١] .

وتوفي بتربة أم الصالح ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة قبل نصف الليل سنة ٧٤٨هـ ودُفن بمقابر باب الصغير ، وحضر الصلاة عليه جملةٌ من العلماء كان من بينهم تاج الدين السبكي[٢] وقد رثاه غيرُ واحد من تلامذته منهم الصلاح الصفدي[٣] والتاج السبكي[٤] .

وترك الذهبي ثلاثة من أولاده عُرفوا بالعلم هم :

١ ـ ابنته أَمةُ العزيز ، وقد أجاز لها غيرُ واحد باستدعاءِ والدها منهم : شيخ المستنصرية رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٧٠٧ [٥] . ويظهر أنها تزوجت في حياة والدها وخلَّفت ولداً اسمه عبد القادر

---

(١) الصفدي : « نكت الهميان » ص ٢٤٢ ، ابن دقماق : «ترجمان الزمان» الورقة ٩٩ .

(٢) السبكي : « طبقات » ٩ /١٠٥ ـ ١٠٦ وقد زاره والده تقي الدين السبكي قبل المغرب وسأله عن حاله . الصفدي : « الوافي » ٢ /١٥٦ ، « ونكت الهميان » ص ٢٤٢ ، ابن حجر : « الدرر » ٣ /٤٢٧ وغيرهم ، ممن ترجم له .

(٣) « الوافي » ٢ / ١٦٥

(٤) « طبقات » ٩ / ١٠٩ ـ ١١١ وهي طويلة أورد بعضها ، وابن قاضي شُهبة : « الإعلام » م ١ ورقة ٩٠

(٥) الذهبي : « منتقى المعجم المختص » الورقة ٣٩ (باريس ٢٠٧٦) و «معجم الشيوخ» م ٢ ورقة ٤٦ ، وانظر أيضاً م١ ورقة ٧٨

سمع مع جَدِّه من أحمد بن محمد المقدسي المتوفى سنة ٧٣٧[1] هـ، وأجازله جَدُّه روايةَ كِتابه « تاريخ الإسلام »[2] .

٢ ـ ابنه أبو الدرداء عبد الله ، وُلد سنة ٧٠٨ هـ وأسمَعه أبوه من خلقٍ كثير ، وحَدَّث ومات في ذي الحجة سنة ٧٥٤[3] .

٣ ـ ابنه شهاب الدين أبو هريرة عبد الرحمن ، وُلد سنة ٧١٥ هـ وسمع مع والدِه أجزاء حديثية كثيرة[4] ، وسمع من عيسى المُطَعِّم الدَّلال المتوفى سنة ٧١٩ هـ، وخرَّج له أبوه أربعين حديثاً عن نحو المئةِ نفس ، وحَدَّث منذ سنة ٧٤٠ هـ وتأخرت وفاته إلى ربيع الآخر سنة ٧٩٩[5] هـ وخلفَ ولداً اسمه محمد ، سمع معَ جده[6] ، وأجاز له جدُّه رواية كتابه « تاريخ الإسلام »[7] .

---

(١) الذهبي : « معجم الشيوخ » م ١ الورقة ١٧ .

(٢) راجع طرة المجلد الحادي والعشرين من « تاريخ الإسلام » الذي بخط الذهبي (أيا صوفيا ٣٠١٤) .

(٣) ابن حجر : « الدرر » ٢ / ٣٩٢ .

(٤) انظر مثلاً : « معجم الشيوخ » م ١ ورقة ٣٨ ، ٦٩ ـ ٧٠ ، ٧٤ ـ ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، م٢ الورقة ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ .

(٥) ابن حجر : « الدرر » ٢ / ٤٤٩ ، والتونسي : « دستور الإعلام بمعارف الأعلام » الورقة ١١٦ (نسخة ولي الدين جار الله ١٦٠٥ ـ ٦٩٧) .

(٦) « معجم الشيوخ » م ١ ورقة ٤٤ .

(٧) انظر طرة المجلد الحادي والعشرين (أيا صوفيا ٣٠١٤) .

تاسعاً: آثار الذهبي:

وهذه تذكرةٌ في آثار مؤرخ الإسلام الذهبي عنيتُ فيها بذكر ما ألَّف واختصر، وخرَّج على أَخْصَرِ ما يُمكن، إذ تفاصيلُها مبسوطةٌ في كتابي «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام» [1]، واقتفيت فيها المنهجَ الآتي:

١ ـ قسمتُ المؤلفات حسب موضوعاتها، ورتبتُ الكتب الواردة في كُلٍّ موضوع على حروف المعجم. أما المختصراتُ، والمنتَقَيات، والتخاريج، فاكتفيتُ بسردها وفقَ ذلك الترتيبِ من غير تقسيم لها.

٢ ـ نبهتُ فيما إذا كان الكتابُ موجوداً: مخطوطاً أو مطبوعاً، وأشرتُ إلى إحدى طبعاته أو نسخه بين قوسين، وتركتُ الذي لم أعثر له على نسخة غُفلاً من ذلك.

أولاً: القراءآت:

١ ـ التلويحات في علم القراءآت (بروكلمان: الملحق ٢/٤٧).

ثانياً: الحديث:

٢ ـ الأربعون البلدانية.

٣ ـ الثلاثون البلدانية.

٤ ـ طرق حديث «مَن كنتُ مولاه فعلي مولاه».

٥ ـ الكلامُ على حديث الطير.

٦ ـ المستدرك على مستدرك الحاكم. (الظاهرية: ٦٢ مجاميع).

---

(١) القاهرة: ١٩٧٦ ص: ١٣٩ ـ ٢٧٦

ثالثاً: مصطلح الحديث وآدابه:

٧ ـ كتاب الزيادة المضطربة .

٨ ـ طرق أحاديث النزول .

٩ ـ العذب السلسل في الحديث المسلسل.

١٠ ـ منية الطالب لأعز المطالب.

١١ ـ الموقظة في علم مصطلح الحديث (باريس: ٤٥٧٧) .

رابعاً: العقائد:

١٢ ـ أحاديث الصفات .

١٣ ـ الأربعين في صفات رب العالمين (منها جزء في الظاهرية، وانظر الألباني: ٢٨٠).

١٤ ـ جزء في الشفاعة

١٥ ـ جزآن في صفة النار .

١٦ ـ الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية (طبعت بدمشق: ١٣٤٧ هـ).

١٧ ـ الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال .

١٨ ـ رؤ ية الباري.

١٩ ـ العرش (انظر بروكلمان: الملحق: ٤٧/١).

٢٠ ـ العلو للعلي الغفار. (طبع غير مرة منها بمصر: ١٣٣٢ هـ).

٢١ ـ الكبائر. (مطبوع، القاهرة: ١٣٥٦ هـ).

٢٢ ـ ما بعد الموت.

٢٣ ـ مسألة دوام النار.

٢٤ ـ مسألة الغيبة.

٢٥ ـ مسألة الوعيد.

خامساً: أصول الفقه :

٢٦ ـ مسألة الاجتهاد.

٢٧ ـ مسألة خبر الواحد.

سادساً: الفقه:

٢٨ ـ تحريم أدبار النساء .

٢٩ ـ تشبيه الخسيس بأهل الخميس (دار الكتب المصرية).

٣٠ جزء في الخضاب.

٣١ ـ جزء من صلاة التسبيح .

٣٢ ـ جزء في القهقهة .

٣٣ ـ حقوق الجار. (كوبرلي ٠ ١٥٨٤ / ٣).

٣٤ ـ فضائل الحج وأفعاله .

٣٥ ـ اللباس.

٣٦ ـ مسألة السماع.

٣٧ ـ الوتر .

سابعاً: الرقائق:

٣٨ ـ جزء في محبة الصالحين.

٣٩ ـ دعاء المكروب .

٤٠ ـ ذكر الولدان .

٤١ ـ التعزية الحسنة بالأعزة .

٤٢ ـ كشف الكُربة عند فقد الأحبة .

ثامناً: التاريخ والتراجم:

٤٣ ـ أخبار السد.

٤٤ ـ أخبار قُضاة دمشق.

٤٥ ـ أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع. (أيا صوفيا: ٢٩٥٣).

٤٦ ـ الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام. (الأحمدية بحلب: ٣٢٨).

٤٧ ـ الإعلام بوفيات الأعلام (نسخه كثيرة منها بالظاهرية: مجموع ١١٧) .

٤٨ ـ الأمصار ذوات الآثار . (من نسخة في استانبول وأخرى بالمدينة) .

٤٩ ـ أهل المئة فصاعداً (مطبوع، بغداد: ١٩٧٣).

٥٠ ـ البيان عن اسم ابن فلان.

٥١ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (طبع اليسير منه، ونسخه مشتتة في خزائن الكتب، وعندي نسخة كاملة مصورة).

٥٢ ـ التاريخ الممتع .

٥٣ ـ تذكرة الحفاظ. (مطبوع، حيدر آباد ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ وهي أحسن الطبعات).

٥٤ ـ تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق. (مطبوع، ليدن: ١٨٩٠).

٥٥ ـ تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري (لا له لي باستانبول: **٢٠٨٩**).

٥٦ ـ تقييد المهمل

٥٧ ـ التلويح بمن سبق ولحق.

٥٨ ـ جزء أربعة تعاصروا.

٥٩ ـ دول الإسلام. (مطبوع، حيدر آباد: **١٣٣٧ هـ**).

٦٠ ـ ديوان الضعفاء والمتروكين (مطبوع).

٦١ ـ ذكر مَن اشتهر بكنيته من الأعيان (جستربتي بدبلن: مجموع **٣٤٥٨**).

٦٢ ـ ذكر من يُؤتمن قوله في الجرح والتعديل (أيا صوفيا: **٢٩٥٣**).

٦٣ ـ ذيل الإشارة إلى وفيات الأعيان.

٦٤ ـ ذيل دول الإسلام (مطبوع، حيدر آباد: **١٣٣٧**).

٦٥ ـ ذيل سير أعلام النبلاء.

٦٦ ـ ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين. (الظاهرية: مجموع **٣٦٩** حديث).

٦٧ ـ ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

٦٨ ـ الذيل على ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

٦٩ ـ ذيل العبر في خبر من عبر (مطبوع، الكويت ـ بدون تاريخ).

٧٠ ـ الرد على ابن القطان (مختصر[1] منه في الظاهرية: مجموع: **٧٠**).

---

(١) ظنه الألباني أصل الكتاب (انظر الفهرس: **٢٨٢**) وهو وهم.

٧١ ـ الزلازل .

٧٢ ـ سير أعلام النبلاء (وهو هذا الكتاب) .

٧٣ ـ طبقات الشيوخ .

٧٤ ـ العُباب في التاريخ .

٧٥ ـ العبر في خبر من عبر (مطبوع بالكويت وفيه نقص).

٧٦ ـ عنوان السير في ذكر الصحابة .

٧٧ ـ القبان (في أصحاب التقي ابن تيمية).

٧٨ ـ المجرد في أسماء رجال كتب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجة سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين (الظاهرية: ٥٣١ حديث).

٦٩ ـ المرتجل في الكنى (بروكلمان: ٢/٥٩).

٨٠ ـ المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم (مطبوع، وأعيد طبعه بالقاهرة ١٩٦٢).

٨١ ـ معجم الشيوخ الكبير. (دار الكتب المصرية: ٦٥ حديث)

٨٢ معجم الشيوخ الأوسط.

٨٣ ـ المعجم الصغير (اللطيف). (الظاهرية: مجموع: ١٢).

٨٤ ـ المعجم المختص بمحدثي العصر (منه انتقاء لابن قاضي شهبة بباريس: ٢٠٧٦ عربيات، والأوقاف العراقية: مجموع رقم: ٢٨٤١).

٨٥ ـ معرفة آل مندة .

٨٦ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (مطبوع، القاهرة: ١٩٦٩).

٨٧ ـ المعين في طبقات المحدثين. (فيض الله باستانبول: ١٥٢٨) .

٨٨ ـ المغني في الضعفاء. (مطبوع بحلب: ١٩٧١).

٨٩ ـ المقدمة ذات النقاط في الألقاب. (دار الكتب المصرية: ٤٤٢٣ج).

٩٠ ـ مَن تكلم فيه وهو موثق. (عندي منه نسخة) وهو غير:

٩١ ـ الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم (المطبوع بالقاهرة: ١٩٠٦).

٩٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال(مطبوع مشهور، منها طبعة القاهرة ١٩٦٣).

٩٣ ـ هالة البدر في عدد أهل بدر (لعله هو الذي في الظاهرية ضمن مجموع: ٤٧).

تاسعاً: السِّيَر والتراجم المفردة:

٩٤ ـ أخبار أبي مسلم الخراساني.

٩٥ ـ أخبار أم المؤمنين عائشة[١].

٩٦ ـ التبيان في مناقب عثمان.

٩٧ ـ ترجمة ابن عقدة الكوفي.

٩٨ ـ ترجمة أبي حنيفة. (مطبوع بالقاهرة ـ بدون تاريخ).

٩٩ ـ ترجمة أبي يوسف القاضي (مطبوع بالقاهرة ـ بدون تاريخ).

١٠٠ ـ ترجمة أحمد بن حنبل[٢].

---

(١) نشر الاستاذ الأفغاني ترجمتها من سير أعلام النبلاء (دمشق: ١٩٤٥).
(٢) نشر المرحوم الشيخ أحمد شاكر ترجمة الإمام أحمد من تاريخ الاسلام.

١٠١ ـ ترجمة الخضر.

١٠٢ ـ ترجمة السِّلَفِي[١].

١٠٣ ـ ترجمة الشافعيّ.

١٠٤ ـ ترجمة الشيخ الموفق[٢].

١٠٥ ـ ترجمة مالك بن أنس.

١٠٦ ـ ترجمة محمد بن الحسن الشيباني (مطبوع بالقاهرة ـ بدون تاريخ).

١٠٧ ـ توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق.

١٠٨ ـ الدرة اليتيمية في سيرة التيمية.

١٠٩ ـ الزخرف القصري (في ترجمة الحسن البصري).

١١٠ ـ سيرة الحَلّاج.

١١١ ـ سيرة أبي القاسم الطبراني.

١١٢ ـ سيرة سعيد بن المسيب.

١١٣ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز.

١١٤ ـ السيرة النبوية (وهي في تاريخ الإسلام).

١١٥ ـ فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب.

---

(١) أبو طاهر أحمد بن محمد الاصبهاني المحدث المشهور المتوفى سنة ٥٧٦ هـ.

(٢) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي صاحب التصانيف المشهورة المتوفى سنة ٦٢٠ هـ.

١١٦ ـ قض نهارك بأخبار ابن المبارك.

١١٧ ـ مناقب البخاري (دار الكتب المصرية ـ طلعت، مجموع: ٩٦٥).

١١٨ ـ نِعم السمر في سيرة عمر.

١١٩ ـ نفض الجُعبة في أخبار شُعْبَة .

١٢٠ ـ سيرة لنفسه.

عاشراً: المنوعات :

١٢١ ـ بيان زغل العلم والطلب[١] . (مطبوع ، دمشق : ١٣٤٧).
١٢٢ ـ التمسك بالسنن .
١٢٣ ـ جزء في فضل آية الكرسي .
١٢٤ ـ الطب النبوي (طبع غير مرة ، وينسب لغيره أيضاً) .
١٢٥ ـ كسر وثن رتن[٢] .

أحد عشر: المختصرات والمنتقيات:

١٢٦ ـ أحاديث مختارة من الموضوعات من «الأباطيل» للجورقاني [٣].
(المكتبة الأزهرية، مجموع: ٢٩٠ حديث) .

١٢٧ ـ بلبل الروض.

---

(١) وجاء عنوانه في نسخة برلين (٥٥٧٠) : «رسالة فيما يذم ويعاب في كل طائفة».
(٢) رتن هذا هندي دجال ظهر بعد سنة ست مئة وادعى التعمير وصحبة النبي ﷺ .
(٣) كتاب الأباطيل لأبي عبد الله الحسين بن إبراهيم بن الحسين الجورقاني المتوفى سنة ٥٤٣ هـ، وقد نسبه الشيخ الألباني لأبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني المتوفى سنة ٢٥٩ هـ، وتابعه سزكين، وهو وهم .

اختصره من «الروض الأُنف» للسهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هـ.

١٢٨ ـ تجريد أسماء الصحابة. (مطبوع، حيدر آباد: ١٣١٥ هـ).

اختصره من «أسد الغابة» لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

١٢٩ ـ تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (أحمد الثالث: ٢٩٤٩ / ١ ـ ٤).

١٣٠ ـ ترتيب «الموضوعات» لابن الجوزي. (المكتبة الأزهرية، مجموع: ٢٩٠ حديث).

١٣١ ـ تلخيص «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» لابن الجوزي (المكتبة الأزهرية، مجموع: ٢٩٠ حديث).

١٣٢ ـ تنقيح كتاب «التحقيق في أحاديث التعليق» لابن الجوزي. (فيض الله: ٢٩٦).

١٣٣ ـ تهذيب تاريخ[1] علم الدين البِرْزالي.

١٣٤ ـ ذكر الجهر بالبسملة مختصراً. (الظاهرية، مجموع: ٥٥).

اختصره من تصنيف في هذا الموضوع للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

١٣٥ ـ الرخصة في الغناء والطرب بشرطه. (الظاهرية: ٧١٥٩).

اختصره من كتاب «السماع» للأدفوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

١٣٦ ـ الكاشف في معرفة مَن له رواية في الكتب الستة. (مطبوع، القاهرة: ١٩٧٢).

---

(١) تاريخ البرزالي هو «المقتفي لتاريخ أبي شامة» عندي منه نسخة.

اختصره من «تهذيب الكمال» لشيخه ورفيقه المزي المتوفى سنة ٧٤٢هـ.

١٣٧ ـ المجرد من «تهذيب الكمال» (الفاتيكان: ١٠٣٢).

١٣٨ ـ مختصر «إنباه الرواة على أنباه النحاة» لابن القفطي. (ليدن)

١٣٩ ـ مختصر «الأنساب» لأبي سعد السمعاني.

١٤٠ ـ مختصر «البعث والنشور» للبيهقي.

١٤١ ـ مختصر «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.

١٤٢ ـ مختصر «تاريخ دمشق» لابن عساكر.

١٤٣ ـ مختصر «تاريخ مصر» لابن يونس.

١٤٤ ـ مختصر «تاريخ نيسابور» لأبي عبد الله الحاكم.

١٤٥ ـ مختصر «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» للمزي.

١٤٦ ـ مختصر «تقويم البلدان» لأبي الفدا.

١٤٧ ـ مختصر «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأبار.

١٤٨ ـ مختصر «التكملة لوفيات النقلة» للمنذري.

١٤٩ ـ مختصر «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر.

١٥٠ ـ مختصر «الجهاد» لبهاء الدين ابن عساكر.

١٥١ ـ مختصر «ذيل تاريخ بغداد» لأبي سعد السمعاني.

١٥٢ ـ مختصر «الرد على ابن طاهر[1]» لابن المجد[2].

١٥٣ ـ مختصر «الروضتين في أخبار الدولتين» وذيله لأبي شامة.

---

(١) أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي، ابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ وكتابه الذي رد عليه ابن المجد في «السماع».

(٢) سيف الدين أبو العباس أحمد ابن المجد عيسى المقدسي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ.

١٥٤ ـ مختصر «الزهد» للبيهقي. (عارف حكمت بالمدينة المنورة).

١٥٥ ـ مختصر «سلاح المؤمن في الأدعية المأثورة» لابن الإمام[1].

١٥٦ ـ مختصر «صلة التكملة لوفيات النقلة» لعز الدين الحسيني.

١٥٧ ـ مختصر «الضعفاء» لابن الجوزي.

١٥٨ ـ مختصر «الفاروق في الصفات» لشيخ الإسلام الأنصاري.

١٥٩ ـ مختصر «القَدَر» للبيهقي.

١٦٠ ـ المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد ابن الدبيثي. (طبع ببغداد: ١٩٥١ ـ ١٩٧٦).

١٦١ ـ مختصر «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي.

١٦٢ ـ مختصر «المستدرك على الصحيحين» لأبي عبد الله الحاكم (طبع بهامش المستدرك).

١٦٣ ـ مختصر «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي.

١٦٤ ـ مختصر «مناقب سفيان الثوري» لابن الجوزي.

١٦٥ ـ مختصر «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

١٦٦ ـ مختصر «الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام» لابن القطان. (الظاهرية، مجموع: ٧٠).

١٦٧ ـ المستحلى في اختصار «المحلَّى» لابن حزم.

١٦٨ ـ معرفة التابعين من «الثقات» لابن حِبّان (الاسكوريال: ١٦٨٩).

---

(١) أبو الفتح محمد بن محمد بن علي المصري المتوفى سنة ٧٤٥ هـ.

١٦٩ ـ المقتضب من «تهذيب الكمال» للمزي .

١٧٠ ـ المقتنى في سرد الكنى . (الأحمدية بحلب: ٣٢٨).

اختصره من كتاب «الكنى» لأبي أحمد الحاكم المتوفى سنة ٣٧٨ .

١٧١ ـ المنتخب من «التاريخ المجدد لمدينة السلام» لابن النجار البغدادي .

١٧٢ ـ منتقى «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، لابن عبد البر.

١٧٣ ـ المنتقى من تاريخ أبي الفدا .

١٧٤ ـ المنتقى من «تاريخ خوارزم» لابن أرسلان الخوارزمي .

١٧٥ ـ المنتقى من «مسند» أبي عَوَانة .

١٧٦ ـ المنتقى من «مسند» عبد بن حُمَيد .

١٧٧ ـ المنتقى من «معجم شيوخ» يوسف بن خليل الدمشقي .

١٧٨ ـ المنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المُقِلِّين لدعلج . (منه قطعة في الظاهرية، مجموع: ٧١).

١٧٩ ـ المنتقى من «معرفة الصحابة» لابن مندة .

١٨٠ ـ المنتقى من «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» لابن تيمية . (طبع بمصر: ١٣٧٤ هـ).

١٨١ ـ مهذب «السنن الكبرى» للبيهقي . (مكتبة مدنية باستانبول ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ وطبع بالقاهرة باسم «المهذب في اختصار السنن الكبير» وهو عنوان غير صحيح) .

١٨٢ ـ نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري [١] كوبرلي : ١١٤٧) .

١٨٣ ـ النبلاء في شيوخ السنة . اختصره من كتاب «المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النَّبَل» لابن عساكر.

اثنا عشر : التخاريج :

قام الذهبي بتخريج عدد كبير من معجمات الشيوخ والمشيخات والأربعينات والأجزاء الحديثية الكبيرة والصغيرة، منها :

أ ـ معجمات الشيوخ :

١٨٤ ـ معجم شيوخ ابن البالسي المتوفى سنة ٧١١ هـ.

١٨٥ ـ معجم شيوخ ابن حبيب الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ.

١٨٦ ـ معجم شيوخ علاء الدين ابن العطار الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٤ هـ.

١٨٧ ـ المعجم العلي للقاضي الحنبلي (أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي المتوفى سنة ٧١٥ هـ.) .

ب ـ المشيخات :

١٨٨ ـ مشيخة التَّلِّي (محمد بن أحمد الصالحي الخياط المتوفى سنة ٧٤١ هـ).

١٨٩ ـ مشيخة الجعبري المتوفى سنة ٧٠٦ هـ.

---

(١) توفي ابن الجزري سنة ٧٣٩ وهو غير ابن الجزري صاحب «غاية النهاية في طبقات القراء» وتاريخه هذا يعرف باسم «حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه» عندي قطع منه، وهو من التواريخ المستوعبة .

١٩٠ ـ مشيخة ابن الزراد الحريري المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

١٩١ ـ مشيخة عز الدين المقدسي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ.

١٩٢ ـ مشيخة ابن القواس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ.

١٩٣ ـ مشيخة زين الدين الكَحّال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ .

جـ ـ الأربعينات :

١٩٤ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «المعجم الصغير» للطبراني . (التيمورية بمصر: ٤٣٨ حديث).

١٩٥ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «معجم» ابن جُمَيع الصيداوي .

١٩٦ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «معجم شيوخ» أبي بكر المقدسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ .

١٩٧ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «معجم شيوخ» ابن زاذان المتوفى سنة ٤٨١ هـ .

١٩٨ ـ أربعون حديثاً لأبي المعالي الأبرقوهي المتوفى سنة ٧٠١ هـ.

١٩٩ ـ أربعون حديثاً لابنه أبي هريرة عبد الرحمان المتوفى سنة ٧٩٩هـ

د ـ الثلاثينات :

٢٠٠ ـ ثلاثون حديثاً من «المعجم الصغير» للطبراني .

هـ ـ العوالي:

٢٠١ ـ عوالي الشمس ابن الواسطي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ .

٢٠٢ ـ عوالي الطاووسي المتوفى سنة ٧٠٤ هـ .

٢٠٣ ـ عوالي أبي عبد الله ابن اليونيني المتوفى سنة ٧٤٧ هـ .

٢٠٤ ـ العوالي من حديث مالك بن أنس.

٢٠٥ ـ العوالي المنتقاة من حديث الذهبي (الظاهرية، مجموع: ٤٥١٢ عام) .

و ـ الأجزاء :

٢٠٦ ـ الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار (دار الكتب المصرية: ١٥٠٨ حديث) .

٢٠٧ ـ جزء من حديث القزويني المتوفى سنة ٧٠٤ هـ .

٢٠٨ ـ جزء من حديث أبي بكر المرسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

٢٠٩ ـ جزء من حديث ابن المحب المقدسي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

٢١٠ ـ جزء من حديث ابن الكويك المتوفى سنة ٧٣٤ هـ.

٢١١ ـ جزء من حديث أمين الدين الواني المتوفى سنة ٧٣٥ هـ.

٢١٢ ـ جزء من حديث ابن جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٦٧ هـ .

٢١٣ ـ أحاديث «مختصر» ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

(ومختصر ابن الحاجب من كتب أصول الفقه المشهورة وهو «منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل» وقد طبع) .

٢١٤ ـ ثلاثيات ابن ماجة. (الظاهرية، مجموع: ٥٩) .

٢١٥ ـ المنتقى من حديث تقي الدين ابن الشيخ شمس الدين ابن المجد البعلي. (الظاهرية، مجموع: ٢٥).

الفَصْلُ الثَّاني

سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ

مَنهَجُهُ وَأَهَمِّيَّتُهُ

أولاً ــ عنوان الكتاب وتأليفه:

سَمَّاه صلاحُ الدين الصَّفَديُّ[1] وابنُ دقماق[2]: «تاريخ النبلاء»، وابنُ شاكر الكتبي[3]: «تاريخَ العلماء النبلاء»، وتاجُ الدين السبكي[4]: «كتابَ النبلاء»، وسبطُ ابن حجر[5]: «أعيانَ النبلاء». وسماه كُلٌّ مِن الحُسيني[6]، وابنُ ناصر الدين[7]، وابن حجر[8]، والسخاوي[9]: «سير النبلاء». أما «سيرُ أعلام النبلاء» فقد جاء مخطوطاً على طُرَر المجلداتِ الموجودة في مكتبة السلطان أحمد الثالث ذوات الرقم ٢٩١٠ / A ، وهي النسخةُ الأولى التي

---

(١) الوافي: ٢/١٦٣ .
(٢) ترجمان الزمان، الورقة: ٩٨ .
(٣) فوات الوفيات: ٢/١٨٣، وعيون التواريخ، الورقة ٨٦ (كيمبرج ٢٩٢٣) .
(٤) طبقات الشافعية: ٩/١٠٤.
(٥) رونق الألفاظ، الورقة: ١٨٠ .
(٦) الذيل على ذيل العبر: ٢٦٨ .
(٧) الرد الوافر: ٣١.
(٨) الدرر الكامنة: ٣/٤٢٦.
(٩) الإعلان بالتوبيخ: ٦٧٤ .

نسِخَتْ عن نسخة المؤلف التي بخطه وكُتِبتْ في حياته في السنوات ٧٣٩ ـ ٧٤٣ هـ، وهو العنوان الأكثر دقة وكمالاً، لذلك اعتمده محققو الكتاب.

وقد ألف الذهبي كتابه هذا بعدَ كتابِهِ العظيم «تاريخِ الإسلام ووفياتِ المشاهيرِ والأعلام» الذي انتهى مِن تأليفه أول مرة سنة ٧١٤ هـ ثم أعاد النظرَ فيه، وَبيّض قسماً مِنه سنة ٧٢٦ هـ[١]. وقد أشار المؤلفُ إلى بعض كُتبه الأخرى، وأحالَ عليها في كتابه «السير». وحينما ذكر تلميذُه الصلاحُ الصفدي بعضَ كتب الذهبي الخاصة بتراجم الأعيان مثل «نفض الجعبة في أخبار شعبة» و«قضِّ نهارك بأخبار ابن المبارك» وغيرهما قال: «وله في تراجم الأعيانِ لكل واحد مصنف قائم الذات مثل الأئمة الأربع ومن جرى مجراهم، لكنه أدخل الجميع في «تاريخ النبلاء»[٢]. وهذا النص يوضح أنه ألف «السير» بعد تأليفِه لِكل تلك التراجم المفردة الكثيرة، ويُلاحظ أن ناسخ أول نسخة من الكتاب قد بدأ بنسخها في سنة ٧٣٩ هـ وانتهى من المجلد الثالث عشر في أوائل سنة ٧٤٣ هـ، وهذا يعني أن المؤلف كان قد انتهى من تأليف كتابه سنة ٧٣٩ هـ أو قبلها. وقد جزم الدكتور الفاضل صلاح الدين المنجد بتأليف الكتاب سنة ٧٣٩ هـ، من غير دليل[٣] سوى أن الناسخ ابن طوغان قد بدأ بنسخ نسخته في هذه السنة. أما نحن فنعتقد أنه بدأ في تأليف الكتاب سنة ٧٣٢ هـ أو قبيلها بقليل، ودليلنا على ذلك قول المؤلف الذهبي في ترجمة العباس عم النبي ﷺ: «وقد صار الملك في ذرية العباس، واستمر ذلك، وتداوله تسعة وثلاثون خليفة إلى وقتنا هذا، وذلك ست مئة عام، أولهم السفاح. وخليفة زماننا المستكفي له الاسم المنبري، والعقد والحل بيد

---

(١) انظر التفاصيل في كتابي: الذهبي: ٢٥ فما بعد.
(٢) الوافي بالوفيات، ٢/١٦٤.
(٣) انظر مقدمته للجزء الأول الذي نشره من السير ص ٣٨.

السلطان الملك الناصر، أيدهما الله»[١]. ولما كان العباسيون قد تقلدوا الحكم سنة ١٣٢ هـ كما هو مشهور فيكون زمانه الذي أشار إليه هو سنة ٧٣٢ هـ، والمستكفي بالله هذا هو أبو الربيع سليمان بن أحمد، ولد سنة ٦٨٣ هـ وخطب له بمصر بعد وفاة أبيه سنة ٧٠١ هـ، وقد ساءت حاله مع السلطان الناصر في آخر أيامه، فأخرجه السلطان إلى قوص من صعيد مصر سنة ٧٣٨ هـ فأقام بها إلى حين وفاته سنة ٧٤٠ هـ[٢]. وليس من المعقول أن يستغرق تأليف الكتاب سبع سنوات ومعظم مادته كانت جاهزة عند مؤلفه بسبب أنه ألفه بعد تاريخ الكبير «تاريخ الإسلام».

ثانياً ــ نِطاق الكتابِ وعدد مجلداته:

جعلَ الذهبيُّ كتابَهُ «سير أعلام النبلاء» في أربعة عشر مجلداً راعى فيها التناسُقَ مِن حيث عددُ الأوراق، ولم يُراعِ في الأغلب ناحية تنظيمية أخرى، لذلك وجدنا النُّساخ ـ فيما بعد ـ لم يُلزِمُوا أنفسَهُم بتقسيم المؤلف[٣].

وقد أفردَ الذهبيُّ المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية الشريفة وسير الخلفاء الراشدين، لكنه لم يعِد صياغتَهُما، وإنما أحالَ على كتابه العظيم «تاريخ الإسلام» ليؤخذا منه ويُضمّا إلى «السِّيَر»، فقد جاء في طُرَّة المجلد الثالث من نسخة أحمد الثالث الأولى تعليق بخط الذهبي كُتِب على الجهة

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢ / الترجمة: ١١ (طبعة مؤسسة الرسالة المحققة).

(٢) البداية لابن كثير: ١٨٧/١٤، والسلوك للمقريزي: ٥٠٤/٢، والدرر لابن حجر: ٣٣٦/٢ وغيرها.

(٣) انظر وصف النسخ في مقدمة هذا الجزء الأول من السير. وقد أشار ناسخ المجلد السابع عشر من النسخة المصورة في المجمع العلمي العربي بدمشق إلى أن نسخته تتكون من عشرين مجلداً.

اليسرى منها نصه: «في المجلد الأول والثاني سِير النبي ﷺ والخلفاء الأربعة تكْتب من تارِيخ الإسلام». ويُـلاحظ أن الذهبـي قد أشار فـي حاشية الورقة (٩٨) من المجلد الثاني من تاريخ الإسلام ـ وهو المجلد الذي يبدأ بالسيرة النبوية ـ وعند الفصل الخاص بمعجزاته ﷺ إلى مكونات «السيرة النَبوية» بقوله: «من شاء من الإخوان أن يُفرِدَ الترجمةَ النبوية، فليكتُبْ إذا وصل إلى هنا جميعَ ما تقدَّم من كتابنا في السِّفر الأول بلا بُدّ، فليفعل، فإن ذلك حسن، ثم يكتُب بعد ذلك «فصل في معجزاته» إلى آخر الترجمة النبوية وهذا يعني أن «السيرة النبوية» التي أرادها الذهبي تشمَلُ جميع المجلد الأول وهو المجلد الخاص بالمغازي ـ ثم جميع «الترجمة النبوية» وهي المئة والثلاثون ورقة من المجلد الثاني الذي بخطه. وهذا ـ في رأينا ـ هو المجلد الأول من «سير أعلام النبلاء». أما سِيرُ الخلفاء الأربعة فهي التي تستغرق بقية المجلد الثاني ـ من نسخة المؤلف التي بخـطه ـ وتتضمن الأوراق: ١٣١ ـ ٢٤١ ، وقسماً من المجلد الثالث ـ من نسخة المؤلف ـ وهذا هو المجلد الثاني من «السير» في رأينا.

والظاهر أن ابن طوغان صاحب النسخة لم يقم باستنساخ المجلدين: الأول والثاني، من «تارِيخ الإسلام» كما طلب المؤلف، فظنَّ كاتبُ الوقفية على المدرسة المحمودية أن هذين المجلدين مفقودان، فتابعه الناسُ على هذا الوهم.

وكان من المظنون أن المجلد الثالث عشر[1] من نسخة ابن طوغان ـ وهو

---

(١) كان هذا المجلد هو حصتي من تحقيق الكتاب، وقد حققته بمشاركة زميلي السيد محيي هلال السرحان .

المجلد الذي يبتدىء بترجمة المحدث الكبير أبي طاهر السِّلَفِي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ، وينتهي بترجمة السلطان الملك المنصور نور الدين علي ابن السلطان الملك المعز أيبك التركماني الصالحي المعزول من السلطنة سنة سبع وخمسين وست مئة، والذي تأخرت وفاتُه إلى حدود سنة سبع مئة ـ أقول: كان مِن المظنون أن هٰذا هو المجلدُ الأخير من الكتاب، لكنني أعتقِدُ ـ بل أكاد أجزم ـ أن هناك مجلداً آخر يُتمم الكتاب هو المجلد الرابع عشر، وهو المجلد الذي ظنه الدكتور الفاضل صلاح الدين المنجد ذيلاً لسير أعلام النبلاء وتابعه الناسُ عليه، وإليك آيات ذلك ودلالاته:

١ ــ من المعلوم أن الذهبي ألف «سير أعلام النبلاء» بعد تأليف «تاريخ الإسلام» وتابع فيه النطاق الزمني للكتاب المذكور، والذي نعرفه أن «تاريخ الإسلام» يمتدُّ من أول الهجرة النبوية إلى آخر سنة (٧٠٠ هـ)، بينما تُبَيِّن دراستنا لتراجم الطبقة الخامسة والثلاثين ـ وهي آخر المجلد الثالث عشر ـ أن أصحابها توفوا في المدة المحصورة بين السنوات ٦٥١ ـ ٦٦٠ هـ، فأين هي تراجم مَن توفِّي بين ٦٦١ ـ ٧٠٠ هـ؟ وهي مدة طويلة عاصر المؤلف كثيراً من أحداثها واتصل بالعديد من المترجمين فيها، وكان الكثير منهم شيوخَه، والباقون من شيوخ شيوخه، وفيهم أعلام الدُّنيا من مثل أبي شامة، وابن الساعي، والنووي، وفخر الدين ابن البخاري، وابن الظاهري ومئات غيرهم بحيث لا يُعقل أن يتركهم الذهبي ولا يُترجم لهم، وقد ترجم في كتابه هذا لمن هم أدنى منهم بكثير، فهذه المدة المذكورة البالغة قرابة الأربعين سنة تحتمِلُ من غير شك أن تُكوِّن المجلد الرابع عشر من «السير».

٢ ــ ولكن كيف ظنَّ الفضلاءُ أن هذا هو المجلد الأخير من «السير» وكيف ذكروا أن تراجمه تصل إلى سنة ٧٠٠ هـ؟

والذي عندي أن الذي أوقع الناس[١] في هذه المَزْلقِة أمران : أولهما عدم دراسة المجلد الثالث عشر دراسة جيدة والنظر إلى المترجمين فيه نظرة فاحِصة مُنقِّبَة.

وثانيهما: هو ترجمة السلطان الملك المنصور نور الدين علي ابن السلطان الملك المعز أيبك التركماني الذي ذكر المؤلف الذهبي أنه تأخر إلى قريب سنة (٧٠٠) هـ، لكن الدارسين لم ينتبهوا إلى أن الذهبي، إنما ذكره بسبب توليه الحكم بعد مقتل والده المعز أيبك سنة ٦٥٥هـ، وأنه لم يبق في السلطنة غير سنتين ونصف إذ عزل في أواخر سنة ٦٥٧ هـ حينما تولى سيف الدين قُطُز السلطنة، فالذي ذكره الذهبي عن بقائه فيما بعد إنما هو من باب الاستطراد لا غير، وقد كان من منهج الذهبي في هذا الكتاب أن يجمع الأقرباء في مكان واحد كما سيأتي بيانه لاحقاً .

٣ ـ قلنا إن الذهبيَّ ألَّف كتابَه هذا في أربعة عشر مجلداً، وطلب من النُّساخ أن يستخرِجُوا المجلدين الأول والثاني من «تاريخ الإسلام» وهما اللذان يتضمنان السيرة النبوية، وسير الخلفاء الأربعة، كما هو مثبت بخطه في طرة المجلد الثالث من الكتاب. وقد نصَّت وقفيةُ الكتاب على المدرسة المحمودية بالقاهرة ـ وهي الوقفية المثبت نصُّها على جميع المجلدات ـ أن الموقوف منه اثنا عشر مجلداً، وقد جاء في نص الوقفية المدونة على المجلد الثالث، وهو أول المجلدات التي وصلت إلينا ـ ما نصه :

«وقف وحبس وسبَّل المقر الأشرف العالي الجمالي محمود أستادار

(١) أول من قال بذلك هو الدكتور الفاضل صلاح الدين المنجد، وتابعتُه في وهمه أنا في كتابي «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام : ١٧٠ من طبعة القاهرة» وعذري أنني كنت آنذاك معنياً «بتاريخ الاسلام»، وكان كلامي على السير عارضاً، أما هو فقد كان من المفروض أنه خبر الكتاب وسبر غوره .

العالية الملكي الظاهري . . . جميع هذا **المجلد وما بعده من المجلدات إلى آخر الكتاب، وعدة ذلك اثنا عشر مجلداً متوالية من هذا المجلد إلى آخر الرابع عشر** . . . » .

فانظر إلى قوله «**إلى آخر الكتاب**» وقوله «**إلى آخر الرابع عشر**» . والواضح البَيّن أن الوقفية لم تشر إلى أن المجلد الرابع عشر هو ذيل سير أعلام النبلاء كما ظن الفاضل الدكتور صلاح الدين المنجد .

٤ ـ وقد جرت عادة النسّاخ، أو المؤلفين، أو كليهما على الإشارة والنص على انتهاء الكتاب، إلا أننا حينما نقرأ آخر المجلد الثالث عشر لا نجد أية إشارة من المؤلف، أو الناسخ إلى انتهاء الكتاب، وقد وجدت الذهبي ـ رحمه الله ـ ينص دائماً عند انتهاء كتبه، فلماذا يشذ في هذا الكتاب!؟ أما الناسخ فإن عباراته التي استعملها في نهاية المجلد الثالث عشر لا تنبىء بأي حال على أن هذا هو آخر الكتاب، وهي لا تختلِف عن ما جاء في بقية المجلدات[1] .

ثالثاً ـ ترتيب الكتاب:

نظم الذهبيُّ كتابَ «السير» على الطبقات، فجعله في أربعين طبقة تقريباً، وآخر ما في المجلد الثالث عشر من نسخة ابن طوغان هي آخر الطبقة

---

(١) وفي خزانة كتب خليل الله المدراسي بحيدر آباد مجلد صورته بعثة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ووضعته في فهرس (التاريخ) من فهارسها (رقم ١١٠٠ جـ٢، قسم ٣ ص ١٨٣)، قالوا: «مجلد فيه من سنة ٥٥٠ ـ سنة ٧٤٠ ويبدأ بترجمة أبي البركات هبة الله بن ملكا البغدادي، وينتهي بآخر الكتاب وبآخر المجلد فهرست تفصيلي لجميع تراجم الكتاب من أوله لآخره حسب ترتيب الطبقات من وضع الذهبي نفسه ينقص قليلا». وهذا الوصف يثير كثيرا من الإرباك إذ كيف يتصور أن مجلداً واحداً يحوي كل هذه الفترة الزمنية، ثم ان الكتاب غير مرتب على السنين حتى يقال من سنة كذا إلى سنة كذا. ولم استطع الوقوف عليه في الوقت الحاضر فلا أتمكن من الحكم عليه.

الخامسة والثلاثين ولا أستبعِدُ أن يتضمَّنَ المجلدُ الرابع عشر خمس طبقات إذا قايسنا ذلك ببقية المجلدات .

وقد استعمل المؤلفون المُسلمون هذا الأسلوبَ في عرض التراجم منذ فترة مبكِّرة من تاريخ الحركة التأليفية، وهو ـ فيما يرى روزنتال ـ تقسيمٌ إسلامي أصيل قد يبدو أقدم تقسيم زمني وُجِدَ في التفكير التاريخي الاسلامي، ولم يكن نتيجة مؤثرات خارجية، بل هو نتيجة طبيعية لفكرة: صحابة الرسول ﷺ، فالتابعون . . . الخ[١]، ومما يؤيد هذا حديثٌ أورده البخاري ونصه: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[٢]

وقد أشار العيني في شرحه إلى أن خير القرون الصحابة ثم التابعون ثم أتباع التابعين[٣]. وهذا المفهوم يظهر واضحاً في كتب الإمام ابن حِبّان البُسْتِي المتوفى سنة **٣٥٤** هـ حيث قَسَّم الرُّواة في كتابيه «الثِّقات» و«مشاهير علماء الامصار» إلى ثلاث طبقات هم: الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين، فصارت الطبقة هنا تعني الجيل .

وقد حاول بعض العلماء أن يجعل للطبقة تحديداً زمنياً واضحاً، فجعلها بعضهم عشرين سنة[٤]، وجعلها آخرون أربعين سنة[٥]، وهلم جراً .

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين: ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٢) الصحيح ٥/٢ ـ ٣ (ط. الشعب) باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، وهو من حديث عمران ابن حصين .

(٣) عمدة القاري: ١٦/١٧٠ .

(٤) انظر «طبق» من لسان العرب.

(٥) استناداً إلى حديث « أمتي على خمس طبقات كل طبقة أربعون عاماً» . (سنن ابن ماجة: ٢/١٣٤٩) ولا يصح، بل أورده ابن الجوزي في «الموضوعات».

لكن الدراسات الحديثة [١] أظهرت أن كثيراً من المؤلفين المتقدمين كابن سعد، وخليفة بن خياط، ومسلم بن الحجاج وغيرهم لم يستعملوا «الطبقة» باعتبارها وحدة زمنية ثابتة، كما لم يستعملوها بمعنى «الجيل» أيضاً ففي الوقت الذي عدَّ فيه خليفة بن خياط الصحابة طبقة واحدة عدّهم ابن سعد عدة طبقات استناداً إلى سابقتهم في الإسلام. أما طبقات التابعين ومَن بعدهم، فقائم عند خليفة وابن سعد على اعتبار اللقيا بين الصحابة والتابعين، فكبارُ التابعين هم الذين روَوْا عن كبار الصحابة ذوي السابقة والفضل، وهم الطبقة الأولى من التابعين، أما التابعون الذين روَوْا عن صِغار الصحابة ولم يلتقُوا بكبارهم لعدم لحاقهم بهم، فيُكونون طبقة ثالثة أو رابعة، وكذلك فإن مَن روى عن سعيد بن المسيب مثلاً وغيرهم من كبار التابعين فإنهم يكونون الطبقة الأولى من أتباع التابعين.

رابعاً ـ مفهوم الطبقة في «السير» وغيره من مؤلفات الذهبي

نَظَّم الإمام الذهبيُّ مجموعةً من كتبه على الطبقات إضافة إلى «السير» منها: «تذكرة الحفاظ» [٢]، و«معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار [٣]»، و«المعين في طبقات المحدثين» [٤]» و«المجرد في أسماء رجال كتاب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجة سوى من أُخرج له منهم في أحد

---

(١) أنظر دراسة صديقنا العزيز العالم الفاضل الدكتور أكرم العمري لأسس تنظيم طبقات خليفة وابن سعد في كتابه الماتع «بحوث في تاريخ السنة المشرفة» ص: ١٨٤ فما بعد (الطبعة الثانية).

(٢) مطبوع منتشر مشهور.

(٣) نشرته دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٩ باعتناء رجل جاهل يدعى سيد جاد الحق، وهي نشرة رديئة جداً يكثر فيها التصحيف والتحريف والسقط وعندي منه نسخة مصورة نفيسة.

(٤) عندي من الكتاب نسخة مصورة عن فيض الله.

الصحيحين[١]، و«طبقات الشيوخ»[٢]، وقد وصلت إلينا جميع هذه الكتب خلا الكتاب الأخير. وتشير دراستنا لهذه الكتب أن الذهبي لم يراع ايجاد تقسيم واحد في عدد الطبقات بين هذه الكتب، ولا راعى التناسق في عدد المترجمين بين طبقة وأخرى في الكتاب الواحد، كما لم يلتزم بوحدة زمنية ثابتة للطبقة في جميع كتبه فيما عدا «تاريخ الإسلام» الذي لا يدخل في هذا التنظيم كما سيأتي بيانه.

١ ـ **عدد الطبقات**: فقد قسم الذهبي كتابه «تذكرة الحفاظ» على إحدى وعشرين طبقة[٣]، وقسم «معرفة القراء» على سبع عشرة طبقة، بينما جعل «سير أعلام النبلاء» في أربعين طبقة تقريباً مع أن الكتب الثلاثة المذكورة تناولت نطاقاً زمنياً واحداً يمتدُّ من الصحابة إلى عصره الذي عاش فيه .

٢ ـ **عدد المترجمين**: ونجد اختلافاً كبيراً جداً في أعداد المذكورين في الطبقات في الكتاب الواحد، ففي «تذكرة الحفاظ» مثلاً نجد أن أعداد المترجمين في الإحدى والعشرين طبقة تتضمن الأعداد الآتية حسب تسلل الطبقات: **٢٣ ، ٤٢ ، ٣٠ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٣٠ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٧٤ ، ٣١ ، ٤٦ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٢ ، ١٠ ، ٨ ،** وهكذا نجدها تتراوح بين ثمانية أشخاص ومئة وسبعة عشر شخصاً . وهذا الذي ذكرته عن « التذكرة » ينطبق على « السير » أيضاً فإن عدد تراجم الطبقة الثلاثين مثلاً بلغ (٧٧) ترجمة بينما بلغ عدد تراجمْ الطبقة التي تليها (١٣٠) ترجمة ، وهلم جراً .

---

(١) عندي منه نسخة مصورة عن الظاهرية .

(٢) ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ: ٨٧٦/٣ ولا أعرف له نسخة .

(٣) وقال في الطبقة الثالثة عشرة : « وقد سميت منهم بضعة وسبعين إماماً وقسمت الطبقة طبقتين أولاهما ثمانية وأربعون والثانية خمسة وعشرون نفساً » (٩٩٧/٣)

٣ ـ الوحدة الزمنية : ولم يُراع الذهبيُّ وحدةً زمنية ثابتة في كتبه التي نظمها على الطبقات ، وهو بذلك لم يدخل سني وفيات المترجمين باعتباره بشكل دقيق حيث نجدها متداخلة بين طبقة وأخرى من جهة ، كما نلاحظ في الوقت نفسه تبايناً كبيراً جداً في المدة الزمنية التي تستغرقها كل طبقة من الطبقات .

ففي « تذكرة الحفاظ » مثلاً نجد أن وفيات المترجمين في الطبقة الأولى تمتد من سنة ١٣هـ ـ وهي سنة وفاة الصديق ـ إلى سنة ٩٣هـ وهي السنة التي تُوفي فيها أنسُ بن مالك ، وهذا يعني أن مدتها ثمانون سنة .

أما التابعون فقد جعلهم في « التذكرة » ثلاث طبقات : كبار التابعين وتمتد وفيات أصحابها من سنة ٦٢ هـ وهي سنة وفاة علقمة بن قيس النَّخَعي ـ إلى سنة ١٠٧ هـ وهي سنة وفاة رجاء العطاردي في ترجيح الذهبي ، فتكون مدتها (٤٥) سنة . ثم الطبقة الوسطى منهم وتمتد وفيات المترجمين فيها من سنة٩٣هـ إلى سنة ١١٧هـ ، فتكون مدتها (٢٤) سنة . ثم طبقة ثالثة من التابعين تمتد وفيات أصحابها من سنة١١٣هـ إلى سنة ١٥١ ، فمدتها (٣٨) سنة .أما الطبقة الخامسة فتمتد من ١٤٤هـ إلى سنة ١٨٠هـ ، فهي (٣٦) سنة وهلم جراً . وهذا الذي ذكرته عن التباين في مدد الطبقات الأولى من « التذكرة » ينطبق على الطبقات المتأخرة أيضاً ، فالطبقة العشرون تمتد من سنة ٦٦٧ إلى سنة ٧٠٨ ، فتكون مدتها (٤١) سنة أما الحادية والعشرون ـ وهي آخر الطبقات ـ فتمتد من سنة٦٧٢هـ إلى سنة ٧٤٢هـ سنة وفاة الحافظ المزي ـ فتكون مدتها (٧٠) سنة .

وهذا الذي أبنته من الخلف في مدة الطبقات في « التذكرة » والتباين الشديد نجده أيضاً في « سير أعلام النبلاء » ، فقد بلغت مدة الطبقة الثلاثين

من السير (١٩) سنة تمتد من سنة٥٦٨هـ ـ سنة وفاة خوارزمشاه ـ إلى سنة ٥٨٧ هـ ـ سنةوفاةابن مغاور الشاطبي ـ وامتدت وفيات المترجمين في الطبقة الحادية والثلاثين من سنة ٥٧٥ هـ ـ سنة وفاةابن عَيّاد الأندلسي ـ إلى سنة ٦٠١هـ ـ وهي سنةوفاة الأرتاحي ، فتكون مدتها (٢٦) سنة . أما الطبقة الخامسة والثلاثون فلم تتجاوز تسع سنوات حيث أن جميع وفيات المذكورين فيها تمتد من سنة ٦٥١ إلى سنة ٦٦٠ [١]

أما كتابه « المعين في طبقات المحدثين » فقد جعل الذهبي الطبقات الأولى فيه تتخذ أسماء المشهورين فيها نحو قوله مثلاً « طبقة الزهري وقتادة » [٢] ، و « طبقة الأعمش وأبي حنيفة [٣] » و « طبقة ابن المديني وأحمد [٤] » ونحو ذلك . ثم غير هذه الطريقة حينما وصل إلى مطلع القرن الثالث الهجري ، فصار يستعملُ السنواتِ التقريبية في الطبقة نحو قوله : « الطبقة الذين بقوا بعد الثلاث مئة وإلى حدود العشرين والثلاث مئة [٥] » و « طبقة من الثلاثين وإلى ما بعد الخمسين وخمس مئة [٦] » ، وهلم جراً . وقد تبين لنا من دراسة هذه الوحدات الزمنية التي ذكرها أن الطبقة قد تكون ـ في هذا الكتاب ـ في حدود عشرين سنة [٧] ، أو خمس وعشرين [٨] ، أو

---

(١) استثنينا من ذلك ما ذكره الذهبي من تأخر وفاة المنصور ابن المعز أيبك إلى سنة (٧٠٠) تقريباً وقد بينا أنه إنما ذكره بسبب توليه السلطنة بين ٦٥٥ ـ ٦٥٧ حسب (نسختي المصورة) .

(٢) المعين ، الورقة : ٧

(٣) نفسه ، الورقة : ٨

(٤) نفسه ، الورقة : ١٤

(٥) نفسه ، الورقة : ١٩

(٦) نفسه ، الورقة : ٣٢

(٧) نفسه ، الورقة : ٢١ ، ٣٢

(٨) نفسه ، الورقة ٢٢ ، ٢٤

ثلاثين سنة[١]) .

أما كتابه « المجرد في أسماء رجال كتاب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجة » فقد جعله في ثماني طبقات اتخذت كل طبقة أسماء أعلام فيما عدا طبقة الصحابة [٢] ، فالطبقات السبع الباقية هي : طبقة زمن الأعمش وابن عون [٣] ، وطبقة الزهري وأيوب [٤] ، وطبقة ابن المسيب ومسروق [٥] ، وطبقة الحسن وعطاء [٦] ، وطبقة عفان وعبد الرزاق [٧] ، وطبقة علي ابن المديني وأحمد بن حنبل [٨] ، وطبقة البخاري ومن تبقى [٩] ، ويُلاحظ أن هذه الطبقات لم تُراع التناسق الزمني أيضاً .

ولكن الذهبي جعل الطبقة عشر سنوات في كتابه العظيم « تاريخ الإسلام » فتألف كتابُه من سبعين طبقة ، فهل يعني هذا أنه وضع تحديداً زمنياً واضحاً للطبقة مخالفاً طريقته في كتبه الأخرى ؟ علماً أن عمله هذا لم يسبقْه فيه أحد فيما نعلم . وقد أدى عملُ الذهبي هذا إلى دفع بعض الباحثين المعنيين بعلم التاريخ إلى القول : بأنه خالف الأقدمين ، بل خالف نهجه هو في كتبه الأخرى [١٠]. على أن دراستنا الموسعة لكتاب « تاريخ الإسلام » قد أبانت أنه لم يقصد بالطبقة هنا غير « العقد » ، وهو مفهوم يدل على وحدة

---

(١) نفسه ، الورقة : ٢٠ ، ٢١

(٢) المجرد ، الورقة : ١ ـ ٦

(٣) المجرد ، الورقة : ٨ ـ ١٢

(٤) المجرد ، الورقة : ٨ ـ ١٢

(٥) نفسه، الورقة : ١٢ ـ ١٣

(٦) نفسه ، الورقة : ١٣ ـ ١٤

(٧) نفسه ، الورقة : ١٤ ـ ١٥

(٨) نفسه ، الورقة : ١٥ ـ ١٦

(٩) نفسه ، الورقة ١٦ ـ ٢٠

(١٠) انظر : روزنثال : علم التاريخ : ١٢١ ، والعمري : بحوث : ١٩١ .

زمنية محددة قدرُها عشر سنوات ، وأنه إنما استخدم هذا المفهوم لحاجات تنظيمية صِرفة جاءت في الأغلب مِن عدم توافر تواريخ وفيات المترجمين بصورة كاملة ، وكثرة الاختلاف فيها لا سيما في المئات الثلاث الأولى . وقد أبانت دراستي أن هذا التنظيم لا علاقة له بأدب الطبقات بل من الأفضل أن يربط بأدب التنظيم على السنين [١] .

مِن كُلِّ الذي مرَّ يتضح أن الذهبي استعمل الطبقة للدلالة على القوم المتشابهين من حيث اللقاءُ أي : في الشيوخ الذين أخذوا عنهم ، ثم تقاربهم في السن من حيثُ المولد والوفاة تقارباً لا يتناقضُ مع اللقيا ، وهو أمر يُتيح تفاوتاً في وفيات المترجمين من جهة ، وتفاوتاً في عدد الطبقات أيضاً .

ولكن كيف نفسِّرُ هذا الاختلاف الكبير في تقسيم الطبقات عند مؤلف واحد مثل الذهبي . بحيث جعل « معرفة القراء » في سبع عشرة طبقة . بينما قسم « السِّيَر » إلى أربعين طبقة تقريباً ؟

وجواب ذلك فيما نرى يعتمِدُ بالدرجة الأولى على نوعية المذكورين في الكتاب الواحد ، فإن كتاباً مثل « التذكرة » ليس فيه غيرُ كبار الحفاظ من الممكن أن يُنظم بطبقات أقل من غيره نظراً لنوعية المذكورين فيه ، وكلهم أو معظمُهم من ذوي الإسناد العالي ؛ بحيث تتباعد المدة الزمنية بينَ طبقة وأخرى ، فيقِلُّ عدد الطبقات ، وهو أمر لا يناقض مبدأ اللقيا .

أما « السير » فنوعية المترجمين فيه تشملُ كل رجال « التذكرة » تقريباً مضافاً إليهم مَن هم أقلُّ منهم مرتبة بحيث يضطر إلى زيادة عدد الطبقات . وطبيعي أنه ليس من المفروض أن يكون كلُّ أحد من طبقة ما قد التقى

(١) انظر تفاصيل موسعة في كتابي : الذهبي ومنهجه : ٢٨٢ ـ ٣٠٢ .

بجميع رجال الطبقة السابقة مع إمكان التقائهم .

ومن أجل توضيح هذا الذي ذكرتُه عن نوعية المُترجَمين أُشير إلى أنه من الممكن نَظْم جميع الرواة من الصحابة في طبقة واحدة ، ولكن من الممكن تقسيم الصحابة إلى أكثر من طبقة حسب الرواية أيضاً ، لأن الصحابي قد يروي عن النبي ﷺ ، وقد يروي عن الصحابي أيضاً . ومن الممكن إذا ذكرنا كبارَ التابعين أن نجعلهم طبقة واحدة ، ولكن التوسع في ذكر التابعين يقضي - من أجل الدقة - تقسيمَهم الى أكثر من طبقة ، فكبارُ التابعين إنما هم الذين رَوَوْا عن كبار الصحابة ، وصغار التابعين هم الذين رَوَوْا عن صغار الصحابة ، لعدم لحاقهم بكبار الصحابة ، فضلاً عن أن بعض التابعين لم يروِ عن غير التابعين ، وهو أمر يعرفه أهلُ العناية بهذا الفن الجليل . وعليه فإن الذهبي لو أراد مثلاً أن يُؤلِّف كتاباً في جميع القراء وليس في « الكبار » منهم لاضطره الأمر إلى زيادة عدد الطبقات ، وهلم جراً . وبهذا يتضح أن كل مترجم إنما تتحدد طبقته حسب الكتاب المذكور فيه وأننا لا يمكن أن نجد توزيعاً موحداً للمترجَمين في جميع كتب الذهبي المرتبة على الطبقات فلا نستطيع القول : إن فلاناً من أهل الطبقة الفلانية عند الذهبي ، بل يَصِحُّ القول : إنه من أهل الطبقة الفلانية في الكتاب الفلاني . فإذا كان الأمرُ كذلك ، فمن البداهة أن لا نجد تقسيماً موحداً للطبقات عند المؤلفين المسلمين ، فمكحول - مثلاً - في الطبقة الثالثة من أهل الشام عند ابن سعد [١] ، بينما هو في الطبقة الثانية عند خليفة [٢] ، وفي الطبقة الرابعة عند الذهبي في « التذكرة » [٣] ، وهو من أهل الطبقة الخامسة عند ابن حجر في

(١) الطبقات : ٧ / ٤٥٣

(٢) طبقات خليفة : ٣١٠ (ط. العمري)

(٣) التذكرة : ١ /١٠٧

« التقريب » [١] .

لقد اخترع المحدثون التنظيمَ على الطبقات لخدمة دراسة الحديث النبوي الشريف ومعرفة إسناد الحديث ونقده ، فهو الذي يُؤدي إلى معرفة فيما إذا كان الإسناد متصلاً ، أو ما في السند من إرسال [٢] أو انقطاع [٣] أو عضل [٤] أو تدليس [٥] ، أو اتفاق في الأسماء مع اختلاف في الطبقة [٦] . وكان نظامُ الطبقات على غاية من الأهمية في العصور الأولى التي لم يعتن المؤلفون فيها بضبط مواليد الرواة ووفياتهم إنما كانت تُحدد طبقاتهم بمعرفة شيوخهم والرواة عنهم .

على أن من أكبر عيوب التنظيم على الطبقات صعوبةَ العثور على الترجمة لغير المتمرسين بهذا الفن تمرساً جيداً ، فضلاً عن عدم وجود تقسيم موحد للطبقة عند المؤلفين . وحينما توفرت للمؤلفين مادة كافية لضبط تاريخ المواليد والوفيات ازداد عددُ المؤلفين الذين ينظِّمون كتبهم الرجالية على الوفيات ، أو على حروف المعجم . وقد كان من جملة انتقادات أبي الحجاج المِزِّي للحافظ عبد الغني المقدسي في تنظيمه لكتابه « الكمال في أسماء الرجال » أنه أفرد تراجم الصحابة عن بقية التراجم المذكورة في كتابه ، قال : « وقد كان صاحب الكتاب رحمه الله ابتدأ بذكر الصحابة ، أولاً الرجال منهم والنساء على حدة ، ثم ذكر مَن بعدهم على حدة ، فرأينا ذكر الجميع

---

(١) التقريب : ٢ /٢٧٣ .

(٢) المُرْسَل : ما رواه التابعي عن رسول الله ﷺ .

(٣) المُنْقَطِع : أن يسقط من السند رجل ليس بصحابي .

(٤) المعضل : ما سقط من إسناده اثنان أو أكثر على التوالي .

(٥) المدلِّس : هو الذي يروي عمن لقيه أحاديث لم يسمعها منه ، أو عمن عاصره ولم يلقه مُوهماً أنه سمعه منه .

(٦) وذلك كثير فيُعرف الشخص من طبقته وشيوخه .

على نسق واحد أولى ، لأن الصحابي ربما روى عن صحابي آخر عن النبي ﷺ فيظنه من لا خبرة له تابعياً فيطلبه في أسماء التابعين فلا يجده ، وربما روى التابعي حديثاً مرسلاً عن النبي ﷺ ، فيظنُّه من لا خِبرة له صحابياً فيطلبه في أسماء الصحابة فلا يجده ، وربما تكرر ذكرُ الصحابي في أسماء الصحابة وفيمن بعدهم ، وربما ذكر الصحابي الراوي عن غير النبيِّ ﷺ في غير الصحابة ، وربما ذكر التابعي المرسِل عن النبي ﷺ في الصحابة ، فإذا ذكر الجميع على نسق واحدٍ ، زال ذلك المحذورُ ، وذكر في ترجمة كل إنسان منهم ما يكشِفُ عن حاله إن كان صحابياً أو غير صحابي [١] » ، لذلك رتب المزي الرجال في كتابه على حروف المعجم وصعد في الترتيب إلى آبائهم وأجدادهم ، ثم رتب النساء على ذلك النسق أيضاً . [٢]

وفائدة التنظيم على الطبقات إنما تظهرُ في العصور الإسلامية الأولى كما ذكرت ، وكلما مضى الزمن بالكتاب صرنا لا نشعرُ بوجود الطبقة شعوراً واضحاً ، لذلك وجدنا في « سير أعلام النبلاء » نوعاً من التسلسل الزمني في الأقسام التي تلت تلك الأعصر الأولى ، فضلاً عن وجود عدد ليس بالقليل من التراجم التي لا علاقة لأصحابها بالرواية أو العلم فضلاً عن اللقيا ، مثل الملوك والوزراء والخلفاء والسلاطين والأطباء والشعراء ونحوهم ، ولكن مفهوم الذهبي للتاريخ ، وتكوينَه الفكري المتصل بالحديث والمحدثين جعله يتمسَّكُ بهذا التنظيم إلى آخر الكتاب بالرغم من عدم جدواه في القرون المتأخرة ودخول غير أهل الرواية في الكتاب .

---

(١) انظر المجلد الأول من تهذيب الكمال بتحقيقنا (منشورات مؤسسة الرسالة) .

(٢) وقد وجدنا العلماء المتأخرين يعنون بإعادة تنظيم كتب الطبقات على حروف المعجم كما فعل نور الدين الهيثمي في إعادة ترتيب « ثقات » العجلي و « ثقات » ابن حبان ، وغيره .

إن نظرة واحدة للتراجم المذكورة في المجلد الثالث عشر مثلاً تُشير إلى نوع من التسلسل في ذكر المترجمين حسب وفياتهم ، وإن لم يكن ذلك بالدقة التي رتبت فيها الكتب المؤلفة على السنين .

وقد وجدنا الذهبي في « السير » كثيراً ما يجمع تراجم الأقرباء في مكان واحد ، ولا سيما الإخوة والآباء والأبناء ، وهو بعمله هذا إنما راعى الوحدة التاريخية ، لكنه في الوقت نفسه كان على حساب « الطبقة » والزمان . فحينما ترجم الذهبي لعاقل بن البكير ـ أحد شهداء بدر ـ أتبعه بتراجم إخوته الثلاثة : خالد بن البكير الذي استشهد يوم الرجيع سنة أربع ، وإياس بن البكير المتوفى سنة ٣٤ هـ ،وعامر الذي استشهد يوم اليمامة . وحينما ترجم لأبي جندل بن سهيل ترجم بعد ذلك لأخيه عبد الله بن سهيل ، ثم لأبيهما سهيل بن عمرو ، وحينما ترجم لأبي الحارث نوفل بن الحارث ، ابن عم رسول الله ﷺ ، ترجم أيضاً لابنه الحارث بن نوفل ، ثم لابن ابنه : عبد الله ابن الحارث بن نوفل ، ثم لابن ابن ابنه : عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، وأتبعهم بعد ذلك بأخويه : سعيد بن الحارث وأبي سفيان بن الحارث ، ثم ولد الأخير جعفر بن أبي سفيان بن الحارث .

وهذا الذي ذكرته عن الجمع بين الأقرباء وتجاوز الطبقة منهج سار عليه الذهبي في جميع الكتاب ، وإن لم يلتزمْ به دائماً ، وقد وجدناه في الأقسام الأخيرة من كتابه يتبع هذا النهج ، ففي الطبقة الثلاثين ترجم لأبي العلاء الهمذاني المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ،ثم أتبعه بابنه محمد بن الحسن المتوفى سنة ٦٠٥ وهو من أهل الطبقة التي بعدها . وترجم لكمال الدين ابن الشهرزوري المتوفى سنة٥٧٢ هـ ذكر والده الملقب بالمرتضى المتوفى سنة ٥١١ هـ وهو من أهل طبقة سابقة . وترجم في الطبقة الثلاثين لقوام الدين أبي المحامد حَمّاد

ابن إبراهيم الصفّاري المتوفى سنة ٥٧٦ هـ، ثم ذكر والده ركن الدين الذي بقي إلى سنة ٥٣٢ هـ، كما ذكر جده إسماعيل بن إسحاق الذي بقي إلى حدود سنة ٥٠٠ هـ. وترجم لأبي المواهب ابن صَصْرى المتوفى سنة ٥٨٦ هـ، وأتبعه بترجمة أبيه أبي البركات ابن صصرى المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ثم ترجمة جده محفوظ المتوفى سنة ٥٤٥ هـ. وحينما ترجم للسلطان الهُمام صلاح الدين يوسف المتوفى سنة ٥٨٩ هـ ترجم معه لأبنائه : العزيز المتوفى سنة ٥٩٥ هـ، والظاهر المتوفى سنة ٦١٣ هـ، والأفضل المتوفى سنة ٦٢٢ هـ وهلم جراً

خامساً ــ طبيعة تراجم «السير» وأسس انتقائها:

عرفنا من دراستنا لسيرة الذهبي أنه كان عالماً، واسع الاطلاع، غزير المعارف ولا سيما في التراجم، وهو الحقل الذي ألف فيه مجموعة من الكتب وبرع فيه البراعة التي جعلت العلماء يجمعون على أنه «مؤرخ الإسلام»، وألف كتابه العظيم «تاريخ الإسلام» الذي احتوى على قرابة أربعين ألف ترجمة، وبذلك كانت لديه حصيلة ضخمة من التراجم كان عليه أن ينتقي منها ما يراه مناسباً لكتابه «السير»، فهل كانت لديه خطة معينة سار عليها في ذلك؟

والجواب: ان دراستَنا للكتاب تُبين أنه سار وفق خطة مرسومة في الانتقاء، سواء أكان ذلك في انتقاء التراجم أم فـي انتقاء المادة المذكورة في كل ترجمة، وقد انطلق في كل ذلك مِن ميزانه الذي وزن به المترجم من جهة، والأخبار التي تجمعت لديه عنه من جهة أخرى، وهو في كُل ذلك إنما يَصْدر عن مفهومه المعيَّن لفائدة كتاب من مثل «السير». ولعلنا نستطيع فيما يأتي أن نتبين أسس انتقاء التراجم:

١ ــ العَلَميَّة:

كان الذهبي قد أورد في «تاريخ الإسلام» جميع المشاهير والأعلام، ولم

يورد المغمورين والمجهولين، بعُرف أهل الفن في كل عصر لا بعُرفنا نحن؛ إذ لا ريبَ في أن هناك آلافاً من التراجم التي ذكرها لم يسمع بها كثيرٌ من المتخصصين في عصرنا. أما في «السير» فإنه اقتصر فيه على ذكر «الأعلام»، وأسقط المشهورين. وقد استعمل الذهبي لفظ «الأعلام»[١] ليدل على المشهورين جداً بعُرفه هو لا بعرف غيره، ذلك أن مفهوم «العَلَم» يختلف عند مؤلف وآخر استناداً إلى عمق ثقافته ونظرته إلى البراعة في علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو عمـل من الأعمال، أو أي شيء آخر، لذلك وجدنا أن سعة ثقافة الذهبي، وعظيم اطلاعه، وكثرة معاناته ودُرْبته بهذا الفن قد أدت إلى توسيع هذا المفهوم بحيث صرنا نجد تراجم في «السير» مما لا نجده في كتب تناولت المشهورين، مثل «المنتظم» لابن الجوزي، و«الكامل» لابن الأثير، و«البداية» لابن كثير، و«عقد الجمان» لبدر الدين العيني، وغيرها.

٢ ـ الشمول النَّوعي:

ولم يقتصر الذهبي في «السِّيَر» على نوع معين من «الأَعلام» بل تنوعت تراجمه فشملت كثيراً من فئات الناس، من الخلفاء، والملوك، والأمراء والسلاطين، والوزراء، والنقباء، والقضاة، والقراء، والمحدثين، والفقهاء، والأدباء، واللغويين، والنحاة، والشعراء، وأرباب الملل والنحل والمتكلمين والفلاسفة، ومجموعة من المعنيين بالعلوم الصرفة.

ومع أن المؤلف قصد أن يكون «السِّيَر» شاملاً لجميع «أعلام» الناس، إلا أننا وجدناه يُؤثر المحدثين على غيرهم، لذلك جاءت الغالبية العظمى من

---

(١) كانت تراجم الأعلام في تاريخ الإسلام أوسع من تراجم المشهورين، وقد أشار الذهبي في تراجمهم من هذا التاريخ بلفظة «أحد الأعلام» انظر على سبيل المثال الأعلام في الجزء الخامس من تاريخ الإسلام، ص: ٤٤، ٦٨، ٦٩، ٨٩، ٩٨، ١١٦، ١٢١، ١٢٨، ١٣٦، ١٥٢، ١٥٥، ١٧٩، ١٨٤، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٥٧... الخ.

المترجمين من أهل العناية بالحديث النبوي الشريف رواية ودراية، وهي - فيما نرى - ظاهرة طبيعية لِما عرفنا من تربية الذهبي ونشأته الحديثية، وحبه لرواية الحديث وشغفِه به، ذلك الشغف العظيم الذي ملك عليه قلبَه، فهو من صنفهم واسعُ المعرفة بهم، عظيمُ الإكبار لهم، شديدُ الكلف بهم، فضلاً عن أن المحدثين هم من أكثر الفئات التي عُنيت بالرواية نظراً للأهمية البالغة التي يحتلها الحديث الشريف في الحياة الإسلامية، ولذلك فإن دراسةَ أحوال نقلة الحديث وبيان مواليدهم ووفياتهم وآراءِ العلماء فيهم وشيوخهم والرواة عنهم ونحو ذلك، من الأمور التي تقوم عليها دراسة الأسانيد، ثم معرفة صحيح الحديث من سقيمه.

٣ - الشمول المكاني:

وقد عمل المؤلف أن يكون كتابه شاملاً لتراجم الأعلام من كافة أنحاء العالم الإسلامي من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وهو شمول قَلَّ وجودُه في كثير من الكتب العامة التي تناولت تراجم المسلمين، إذ كثيراً ما كانت مثل تلك الكتب تُعنى بايراد تراجم أعلام بلدها أو منطقتها، فابن الجوزي في «المنتظم» مثلاً عني بتراجم البغداديين عناية فاقت غيرَهم من علماء وأعلام البلدان الأخرى مع أنه أراد لكتابه أن يكون عاماً شاملاً، ولم يُعن كثيرٌ من المؤلفين المشارقة الذين ألفوا في التراجم العامة بتراجم المغاربة والأندلسيين[1]، كما لم يُعن كثير من المؤلفين المغاربة والأندلسيين بتراجم المشارقة عنايتهم بتراجم أهل بلدهم، بينما نجد نوعاً جيداً من التوازن

---

(١) ألف زكي الدين المنذري «التكملة لوفيات النقلة» ليكون كتاباً عاماً في «النقلة» لكل العالم الإسلامي، لكننا وجدناه يقصر تقصيراً كبيراً في تراجم الأندلسيين والمغاربة (انظر كتابنا: المنذري وكتابه التكملة: ٢٣٨ فما بعد - النجف ١٩٦٨).

في كتاب «السِّيَر» يَقِلُّ نظيره في الكتب التي من بابته، وهو منهج سار عليه الذهبي في كثير من كتبه ولا سيما في كتابه الكبير «تاريخ الإسلام»، مما يشير إلى شُمول نظرته، واتساع اطلاعه على المؤلفات في هذا الفن في كل منطقة، من مناطق العالم الإسلامي وصلته بها.

٤ ـ التوازن الزماني:

حاول الذهبي في هذا الكتاب أن يُوازِنَ في عدد الأعلام الذين يذكرهم على امتداد المدة الزمنية الطويلة التي استغرقها الكتاب والبالغة سبعة قرون، فلم نجد عنده تفضيلاً لعصر على آخر في هذا المجال. ومع أننا نجد تفاوتاً في عدد المترجَمين بين طبقة وأخرى، لكننا لو نظمنا الكتاب على وفيات المترجمين ونظرنا الى عدد المذكورين في كل سنة لوجدنا نوعاً من التناسق في عدد المذكورين في كل سنة. نعم، قد نجد كثيراً من السنوات مما يخرج عن هذا القول لكن هذا لا يُناقض المسارَ العام الذي أشرنا إليه، بسبب وفاة عدد من الأعلام في بعض هذه السنوات لِعوامل كثيرة منها الأوبئة والحروب وغيرها.

٥ ـ طول التراجم وقصرها:

وجد الذهبي، بسبب سعة اطلاعه وتمكنه العظيم في الرجال، مادة وفيرة احتوتها مئاتُ الموارد التراجمية، يساعده على ذلك سعة النطاق الزماني لكتابه الذي يمتد من أول تاريخ الإسلام حتى نهاية المئة السابعة، والنطاق المكاني الذي يشمل العالم الإسلامي كله. وقد رأينا قبل قليل كيف استطاع أن يُحدد نوعيةَ المترجمين باختيار الأعلام منهم، إلا أن ما يبدو أكثر أهمية هو أن هؤلاء الأعلام تتوفر عنهم عند مثل هذا المؤلِف الواسع الاطلاع كميةً

عظيمة من المادة التاريخية التي لا بد أن ينتقيَ مَنها ما يتفق وخطته في صياغة الترجمة من أجل أن لا يتضخم الكتاب أزيد من هذا التضخم الكبير الذي قَدَّره له.

من هذا الذي ذكرتُ اجتهد الذهبيُّ أن يُقدم ترجمة كاملة ومختصرة في الوقت نفسه لا تُؤثر فيها كمية المعلومات التي تتوافر لديه، فتخرجه عن خطته العامة. وقد تمكن الذهبيُّ أن يتخلص من مثل تلك المادة الضخمة التي تحصلت لديه عن بعض كبار الأعلام بإحالة القارىء إلى مصادر أوسع تناولت ذلك العَلَم بتفصيل أكثر مما ذكره هو في بعض جوانب الترجمة، نحو قوله في ترجمة عكرمة بن أبي جهل: «استوعب أخباره أبو القاسم بن عساكر»، وقوله في ترجمة يزيد بن أبي سفيان: «له ترجمة طويلة في تاريخ الحافظ أبي القاسم»، وقوله في ترجمة بلال بن رباح: «ومناقبه جمة استوفاها الحافظ ابن عساكر»، وقوله في ترجمة الكمال ابن الأنباري بعد أن ذكر عدداً من تصانيفه: «وسرد له ابن النجار تصانيف جمة»، والأمثلة كثيرة.

ومع هذا الذي ذكرت فإن طولَ التراجم وقِصرَها في «السِّيَر» من الأمور الواضحة لمطالع الكتاب، فقد نجد ترجمة لا تزيد على بضعة أسطر، بينما نَجِدُ ترجمة أخرى قد تبلغ صفحات عديدة. وقد انتقده تلميذه التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ على خطته في تطويل التراجم وتقصيرها في كتبه التاريخية وعدَّ ذلك من باب التعصب والهوى العقائدي[١]. إلا أن دراساتنا لهذه المسألة توضح أن السبكي قد بالغ في نقده بسببٍ من تعصبه الشديد للأشاعرة، وتبين لنا أن الذهبي راعى في أكثر الأحايين قيمةَ الإنسان وشهرته بين أهل علمه، أو مكانته بين الذين هم من بابته سواء أكان متفقاً معه في

(١) انظر الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٣ - ٢٤.

العقيدة أم مخالفاً، فنراه مثلاً يُطوِّل في تراجم الشعراء البارزين، أو كبار النحويين، أو أعلام الصوفية، أو كبار الخلفاء والملوك والسلاطين، وقد ترجم للشهاب السُّهْرَوَرْدي المقتول سنة ٥٨٧ هـ ترجمة طويلة باعتباره «العلامة الفيلسوف السماوي المنطقي.. من كان يتوقد ذكاءً، مع قوله «إنه قليل الدين» وأن مصنفاته «سائرها ليست من علوم الإسلام» وأن الذين أفتوا بقتله «أحسنوا وأصابوا»[١]، وترجم ترجمة حافلة لراشد الدين سنان صاحب الدعوة النِّزارية الذي كان في رأيه: «سخط وبلاء»[٢]، وأمثلة ذلك في «السِّيَر» كثيرة لا نرى كبير فائدة في إيراد المزيد منها. ومع أن الذهبي كان عظيم الاهتمام بالمحدثين، مُكْبِراً لهم، شديد الكَلَف بهم، إلا أننا وجدناه يترجم لهم تراجم قصيرة عموماً إذا استثنينا بعضَ كبار أعلامهم مقارنة بكثير من التراجم الطويلة التي خَصَّ بها بعض الشعراء والصوفية والمتكلمين والفلاسفة.

على أن هذا الذي قلتُه لا يعني أنه لم يتأثر إطلاقاً بعقيدته وآرائه ونظرته إلى العلوم في فهم المترجمين وتطويل تراجمهم أو تقصيرها، فهذا أمر يجانب الطبيعة البشرية، وهو موجود عند جميع المؤرخين، لكننا نشير إلى محاولاته الجدية في الموازنة، وإلى أنه لم يفعل ذلك عن هوى وتقصد، إنما انطلق من تكوينه الفكري الذي كان يحدد أهمية «العَلَم» في خدمة الإسلام، أو الإضرار به، فكان ينطلق ليبين هذا أو ذاك فتطول التراجم.

إن تقدير الإمام الذهبي للعَلَم الذي يترجم له ويطول في ترجمته بسبب المكانة التي يحتلها هي التي دفعت به إلى تخصيص مجلد كامل للسيرة النبوية الشريفة، فسيرة سيدنا محمد ﷺ هي المثل الأعلى الذي يحتذيه

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / الترجمة ٩٩ (بتحقيقنا).

(٢) السير : ٢١ / الترجمة : ٩٠.

المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها فضلاً عن الأحكام المستفادة منها. وهذا الأمر هو الذي أدى به إلى تخصيص مجلد كامل عن سير الخلفاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لما تُمثله من قدوة للمسلمين، ولما يُستفاد من دراستها في شتى مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ولما تحتله من المكانة في بناء الإنسان المسلم.

سادساً ـ صياغة تراجم «السِّيَر» وعناصرها:

تختلف المادة الموجودة في ترجمة ما من تراجم «السِّيَر» عن الأخرى حسب طبيعة المترجَم له وقيمته العلمية أو الأدبية أو مكانته السياسية من جهة، وتتوحد في الأسس العامة لمكونات الترجمة من جهة أخرى. ولا نجد تناقضاً في ذلك، فالذهبي يُعْنَى في معظم التراجم بذكر اسم المترجم ونسبه ولقبه وكنيته ونسبته، ثم مولده أو ما يـدل على عمره[١]، ونشأته ودراسته وأخذه عن الشيوخ الذين التقى بهم وروى عنهم، وأفاد منهم، ثم تلامذته الذين أخذوا عنه وانتفعوا بعلمه، وتخرجوا به، وما خَلّف من آثار علمية أو أدبية أو اجتماعية، ويبين بعد ذلك منزلته العلمية وعقيدته من خلال أقاويل العلماء الثقات فيه جرحاً وتعديلاً ممن كان وثيق الصلة به، ثم غالباً ما ينهي الترجمة بتحديد تاريخ وفاة المترجَم ويدقق في ذلك تدقيقاً بارعاً. والمؤلف في الوقت نفسه يذكر في كل ترجمة أموراً متفرقة تتصل بطبيعتها، فهو يعنى مثلاً بايراد أعمال

(١) لقد اعتنى الذهبي بذكر الولادات جهد طاقته فذكرها دائماً حينما توفرت له لما لذلك من أهمية كبيرة في الاطمئنان على لقاء المترجم لمشايخه وسماعاته عليهم أو إجازاته منهم. وكان المحدثون يعنون بتتبع المواليد ويسألون الشيخ عن مولده قبل السماع منه أو الأخذ عنه، فإذا ما وجدوا له رواية قبل هذا التاريخ أو في سن لا تحتمل السماع حكموا بكذبه في هذه الرواية.

الخلفاء والملوك والأمراء والمتولين في تراجمهم، ويركز عنايته على ما قاموا به من نشر عدل أو بث ظلم او سفك دماء. وهو يعنى بايراد نماذج من شعر الشعراء ومختارات من نثر الأدباء، وأقوال للمتفلسفين وأرباب المقالات بما ينبىء عن حسن عقيدتهم أو سوئها ونحو ذلك.

والذهبي له أسلوبُه المتميِّز في صياغة التراجم، وأساليب عرضها يختلف عن الموارد التي ينقُل منها، وقد دفعه هذا الأمرُ في أغلب الأحيان إلى إعادة صياغة المادة التاريخية المنقولة عن المؤلفات السابقة بأسلوبه الخاص، ولم ير في ذلك ضيراً طالما قد توخى الدقة والأمانة في نقل معاني الأقوال، لاسيما تلك التي لا تؤثر في قيمتها إعادة الصياغة مثل تاريخ وفاة، أو ميلاد، أو قيام بعمل ما، أو اختصار في أسماء الشيوخ ونحو ذلك، وقد بلغ الامر به حداً أنه أعادَ تركيب الترجمة في كثير من المواضع التي اعتمد فيها مصدراً واحداً. ولكنه ألزم نفسه في الوقت نفسه بنقل النصوص بألفاظها في الحالات التي تستحِقُّ ذلك وتتطلبها مثل أقوال العلماء في الجرح والتعديل، ونصوص الكتب والتوقيعات التي أوردها في «السير»، والقطع النثرية، والقصائد الشعرية، والمناقشات بين العلماء، فضلا عن الروايات المسندة، ونصوص الأحاديث النبوية الشريفة.

أما اذا انتقى من النص أو لخَّصَه، فإنه يشير إلى ذلك للأمانة العلمية من جهة وبما يدفع عنه تهمة التلاعب به من جهة أخرى.

أما أسلوبُه الأدبي في عرض الترجمة، فقد تميز بالطراوة والحبك، ولم يُعن بالصَّنْعَة البيانية وتزويق الألفاظِ مثل غيره من معاصريه وتلامذته، كابن سيد الناس اليَعْمري وتاج الدين السُّبْكي وصلاح الدين الصَّفَدي وغيرهم. وهذا أمر طبيعي فيما نرى، لأن للكلمة مكانتَها عند الذهبي، وهو الناقِدُ الذي يختار

العبارة المناسبة للتعبير عما يُريد بدقة وأمانة، ويصِفُ المترجَم بالعبارة التي تزِنُه جرحاً أو تعديلاً، فهو أسلوبٌ علمي قبلَ كل شيء. ومن الواضح لكل ذي بصيرة أنه لا يُمكن وصف المترجَمين بشكل متقن عند اتباع أسلوب الصنعة البلاغية الذي يتجلى فيه العناية بالأسلوب على حساب دقة المعاني ودلالات الألفاظ.

وقد عرفنا من سيرة الذهبي ومكانته العلمية أنه قد حَصَّل طرفاً صالحاً من العربية في نحوها وصرفها وآدابها، كما أنه عُني عناية كبيرة في مطلع حياته بالقراءآت التي تقومُ في أساسها على علم تام بالعربية، وقد تعاطى الشعر، فنظم اليسير منه، وأورد من شعر غيره جملة كبيرة في هذا الكتاب وغيره مِن كتبه. لكل ذلك أصبحت لغته قوية جداً بحيث يصعُب أن نجِدَ في كتابه لحناً أو غلطاً لغوياً، أو استعمالاً عامياً، فإذا كان النادرُ من ذلك، فإنه من سهو القلم، أو الذهول، أو بعض ما يغلـط فيه الخواص، وليس ذاك بشيء. وقد أدت دراساتُه لعدد ضخم من المؤلفات التاريخية والأدبية والحديثية واشتهاره بقوة الحافظة الى وقوفه على أساليب عدد كبير من الكُتَّاب والمؤلِّفين على مدى عصور طويلة تنوَّعت أساليب الكتابة فيها، فأكسبه كل ذلك خبرة أدبية قوية، وملكة جيدة على التعبير.

إن معرفة اللغة العربية معرفة جيدة والتمتع بالأسلوب الرصين من العوامل المهمة التي تُخْرِج ترجمة جيدة يُنْتَفَعُ بها؛ والقول بأن المَعْنِـيَّ بعلم التراجم لا يحتاج كُلَّ هٰذه المعرفة قولٌ فاسد، وقد أشار شيخ الذهبي ورفيقه الحافظ أبو الحجاج المزي في نهايـة تقديمه لكتابه العظيم «تهذيب الكمال» إلى هذه الضرورة فقال: «وينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حَصَّل طرفاً صالحاً

من علم العربية نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس، فإنه إذا كان كذلك، كثر انتفاعه به وتمكن من معرفة صحيح الحديث وضعيفه وذلك خصوصية المحدث التي من نالها وقام بشرائطها ساد أهل زمانه في هٰذا العلم، وحُشِرَ يوم القيامة تحت اللواء المحمدي إن شاء الله تعالى[١].

سابعاً: المنهج النقدي:

كان الإمام الذهبي من المعنيين بالنقد كُلَّ العناية بحيث صار يحتلُّ مكاناً بارزاً في كتبه، وألف الكتبَ النافعة الخاصةَ به، ولذلك وجدناه عظيمَ الاهتمام به في كتبه، ومنها كتابه النفيس «سير أعلام النبلاء» مارسهُ في كل مادته، واعتبره جزءاً أساسياً من منهجه في تأليف الكتاب.

والذهبي إنما ينطلِقُ في هذه العناية وذاك الاهتمام من تكوينه الفكري المتصل بدراسة الحديث النبوي الشريف وروايته ودرايته، والذي يُؤكِّد ضرورة تبيين أحوال الرواة، ودرجة الوثوق بهم بتمييز الصادقين منهم عن الكاذبين، فسَحَبَهُ بعد ذلك على جميع كتابه، سواء أكان ذلك في تراجم المحدِّثين، أم في تراجم غيرهم وسواء أكانوا من المتقدمين، أم من المتأخرين. والحق أنَّ المحدثين اخترعوا مناهجَ للبحث العلمي تُعَدُّ مِن أرقى المناهج العلمية التي لم يعرفها الأوربيون إلا في عصور متأخرة جداً. وقد انتفع بها المؤلفون في الفنون والعلوم الأخرى، منهم: المؤرخون واللغويون والأدباء والفقهاء وغيرهم[٢].

---

(١) انظر مقدمة تهذيب الكمال، بتحقيقنا.

(٢) انظر ما كتبناه عن «أثر دراسة الحديث في تطور الفكر العربي» في كتاب «رحلة في الفكر والتراث» بغداد: ١٩٨٠.

وقد اعتنى الذهبيُّ في «السِّيَر» بكل أنواع النقد، فلم يقتصِرْ على مجال واحد من مجالاته، فقد عُني بنقد المترجَمين، وتبيان أحوالهم، وأصدر أحكاماً وتقويمات تاريخية، وانتقد الموارد التي نقل منها، ونبَّه إلى أوهام مؤلفيها، وبَرَع في إصدار الأحكام على الأحاديث إسناداً ومتناً، وسحَبَ ذلك على الروايات التاريخية .

١ ـ نقد المترجمين :

يقوم نقد المترجَم عند الذهبي عادة على إصدار حكم في الرجل وتبيان حاله جرحاً أو تعديلاً، ويكون ذلك في الأغلب بإيراد آراء الثقات المعاصرين فيه وأحكامهم عليه وانطباعاتهم الشخصية عنه مما تحصَّل لديهم نتيجة لصلتهم به، ومعرفتهم بعلمه وسيرته. وفي مثل هذه الحال قد يكتفي بآرائهم، أو يرد عليها، أو يُرجح رأياً منها، وتكون نتيجةُ التعديل أو التجريح إصدار أحكام بعبارات فنية لها دلالاتُها الدقيقة جداً نحو «ثقة»، و«صدوق»، و«صُويلح»، و«دجال»، و«متروك»، و«كذاب»، و«مجهول»، وما إلى ذلك مما فَصَّله في مقدمة كتابه النفيس «ميزان الاعتدال».

وكانت الغاية الأساسية مِن نشوء هذا النقد هو تبيانَ أحوال رجال الحديث لمعرفة صحيح الحديث من سقيمه، لكننا وجدنا الذهبي في الوقت نفسه يسحبُه على معظم المترجمين في كتابه هذا وغيره من الكتب وإن لم يكونوا من المحدثين، بل سَحَبه إلى مترجمين لا علاقة لهم بالرواية أياً كانت.

وقد أدى هذا الأمر إلى اعتراض بعض معاصريه عليه في عنايته الكبيرة باعتبار أن الدواعي التي دعت إلى قيام النقد عند المتقدمين هي الوصول إلى تصحيح الحديث النبوي الشريف، وأن الحديث قد استقر في الكتب الرئيسة

فما عادت هناك من حاجة إليه، وأن فائدته قد انقطعت منذ مطلع القرن الرابع الهجري[١]، كما أَخذَ عليه بعضُهم نقده لغير الرواة واعتبروا أن ذلك لا فائدة فيه وأنه محض غيبة[٢].

وقد أثارتَ هذه القضية نقاشاً بين العلماء فيما بعد، ولاحظنا أن العلماء المسلمين، ومنهم السخاوي، قد سوَّغوا استعمال النقد في غير مجال الرواة بالفائدة المتوخاة منه للنصيحة ودفع الضرر[٣]. لكننا لاحظنا في هذا التفسير سذاجة، وآية ذلك أنه قد يَصِحُّ في حالة نقد المعاصرين من غير الرواة، فكيف نفسِّر نقد الرواة المتأخرين، وكيف نفسر استمرار الذهبي وغيره في نقد السابقين وتأليف الكتب الخاصة بالجرح والتعديل إن كانوا يعتقدون بانقطاع الفائدة؟

الحق أن مثل هذا الأمر لا يفَسَّر بالسذاجة التي ناقشوها، فإن هناك عوامل أكثر عمقاً دفعت الإمام الذهبي إلى مثل هٰذه العناية لعل من أبرزها:

أ ــ استمرار العناية بالرواية في العصور التالية لظهور دواوين الإسلام في الحديث، وبعض المجاميع الحديثية الأخرى، بل ازدادوا عناية بها تقليداً للسابقين من جهة، وتديناً وحباً بالحديث من جهة أخرى، ولأنها صارت جزءاً من الحركة التعليمية والفكرية عند المسلمين من جهة ثالثة. وهذا يعني استمرار الإسناد ومن ثم ضرورة استمرار النقد في كل عصر لتبيان أحوال الرواة. ومع أن الإمام الذهبي ركز في كتابه «الميزان» على الرواة القدماء،

---

(١) ممن صرح بهذا أبو عمرو محمد بن عثمان الغرناطي المعروف بابن المرابط المتوفى سنة ٧٥٢ هـ (انظر الإعلان للسخاوي: ٤٦٠، ٤٧٠، ٤٧٤).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية: ٢ / ١٤.

(٣) الإعلان: ٤٦١ ـ ٤٦٢.

واعتبر مطلع القرن الرابع الهجري هو الحد الفاصل بين المتقدم والمتأخر، وأنه لو فَتَحَ على نفسه تناول المتأخرين لما سلم معه إلا القليل[١]، إلا أنه فتح هذا الباب في كتبه الأخرى ومنها «معجم الشيوخ» و«تاريخ الإسلام»، و«سير أعلام النبلاء» وغيرها.

ب ــ إن الذهبي ـ وهو الناقد العظيم ـ لم يتقبَّل آراء النقاد السابقين باعتبارها مسلمات لا يُمكن ردها أو الطعن فيها دائماً بالرغم من احترامه الشديد للثِّقات منهم، ومدحه الكثير لهم، وهو بهذا اعتبر باب الاجتهاد في النقد ما زال مفتوحاً، فعُنِيَ به كل هذه العناية، يدل على ذلك رده لآراء كثير من كبار النقاد وعدم قبولها مثل أحمد بن صالح المصري المتوفى سنة ٢٤٨ هـ، وأحمد بن عبد الله العِجلي المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وإبراهيم بن يعقوب الجُوزجاني السعدي المتوفى سنة ٢٥٩ هـ ، والبَرْذعي المتوفى سنة ٢٩٢ ، والنَّسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ، والعُقَيْلي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ، وابنِ عَدِي الجُرجاني المتوفى سنة٣٢٣ هـ،وابنِ حِبَّان البُسْتِي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ، وأبي الفتح الأَزدي المتوفى سنة ٣٦٧ ، وابنِ مَنْدَة المتوفى سنة ٣٩٥ هـ، والخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، وابنِ الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، وغيرهم مما يطولُ ذكرهم وتعدادهم.

جـ ــ إن النقد أصبح جزءاً من مفهومه التاريخي لذلك حاول تطبيقه في كل كتبه. وقد أخطأ كثير ممن فسَّر نقدَه لكبار العلمـاء من غير الـرواة، أو الملوك، أو أرباب الولايات أو نحوهم بأنه من صنف «نقد الرجال»، بل هو حكم تاريخي كانت الغايةُ منه تقويم المترجم.

(١) الميزان : ١ / ٤ .

والحق أن الذهبي لم ينظُرْ إلى أمثال هٰؤلاء بالمنظار الذي نظر به إلى الرواة وأشباههم في الأغلب، بل نظر إلى كل طائفة منهم بمنظار يختلِفُ عن الآخر، وهي مسألة قلما انتبه إليها الباحثون، فوقعوا بآفة التعميم، وخرجوا بما ظنوا أنه حقيقة، فذكروا أن المؤرخين المسلمين المتأثرين بالحديث الشريف وعلومه نظروا إلى جميع الناس بمنظار واحد هو منظار الحديث والمحدثين. وقد استطاع الذهبي في «السِّير» وغيره أن ينظر إلى كل طائفة منهم بمنظار آخر كوَّن في الأغلب صورة لجماع رأيه في المترجَم.

إن تعدد المناظير هذا جعل آراء الذهبي في المترجَمين تبدو لأول وهلة متناقضة مضطربة، نحو قوله في ترجمة صدقة بن الحسين الحداد المتوفى سنة ٥٧٣ هـ «العلامة . . . الفرضي المتكلم المتهم في دينه»[١]، فهو هنا قد فَرَّق بين علم الرجل ودِينه، وأعطى لكل ناحية تقويماً خاصاً. ومن ذلك قوله في ترجمة الشهاب السُّهْرَوردي المقتول سنة ٥٨٧ هـ: «العلامة الفيلسوف. . مَن كان يتوقد ذكاءً، إلا أنه قليل الدين» ثم عَلَّق الذهبي على افتاء علماء حلب بقتله، بقوله: «أحسنوا وأصابوا»، وأنه «كان أحمق طياشاً منحلاً»[٢]، ومثل هذا كثير.

وهذا الاختلاف في المناظير وتعددها عند الذهبي جعله يُراعي في كل طائفة صفات معينة بصرف النظر عن اتفاقه أو اختلافه معهم، فكان ينظر إلى الخلفاء والملوك والوزراء وأرباب الولايات مثلاً من زاوية الحزم والدهاء، والقوة والضعف، والسياسة، والظلم والعدل، وحب العلم والعلماء ونحوها،

---

(١) السير : ٢١ / الترجمة : ٢١ .

(٢) السير : ٢١ / الترجمة : ٩٩.

مثل قوله في ترجمة قايماز مولى المستنجد «كان سمحاً كريماً. قليل الظلم»[١]، وقوله في ابن غانية: «الأمير المجاهد»[٢]، وقوله في مجد الدين ابن الصاحب: «وكان قد تمرد وسفك الدماء وسب الصحابة وعزم على قلب الدولة فقصمه الله»[٣]، وقوله في الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة: «كان بطلاً شجاعاً مقداماً جواداً مُمَدَّحاً له مواقف مشهودة مع عمه السلطان صلاح الدين»[٤]، وغير ذلك كثير[٥].

أما العلماء فكان يُراعي فيهم البراعة والمعرفة في العلم الذي تخصصوا فيه، ومن ذلك مثلاً الشعراء، فإنه نظر إلى إبداعهم وجودة شعرهم فقوَّمهم استناداً إلى ذلك[٦]. ثم كثيراً ما نجده يقوِّم بعض المترجمين بعد دراسة بعض كتبهم، ويُبين قيمتها العلمية بين الكتب التي من بابتها.

٢ ـ نقد الأحاديث والروايات:

أكثرَ الإمامُ الذهبيُّ من إيراد الأحاديث النبوية الشريفة في كتبه التاريخية وغيرها، ومنها كتابه «سير أعلام النبلاء». وقد عني دائماً بالتعليق على هذه الأحاديث من حيث الإسناد والمتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، قال تلميذه

---

(١) السير: ٢١ / الترجمة: ٢٠.

(٢) السير: ٢١ / الترجمة: ٢٣.

(٣) السير: ٢١ / الترجمة: ٧٩.

(٤) السير: ٢١ / الترجمة: ٩٧.

(٥) انظر مثلاً لا حصراً بعض تراجم المجلد الحادي والعشرين من السير: ١١، ١٨، ٢٥، ٨٠، ١٠٠، ١١٩... الخ.

(٦) انظر مثلاً: ٢١ / التراجم: ١٤، ٢٤، ٦٣، ٨٤، ٨٥، ١٠١، ١٠٢... الخ.

الصلاح الصفدي: «وأعجبني منه ما يُعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يُورده حتى يُبين ما فيه من ضعف متن أو ظلام إسناد، أو طعن في رواته، وهذا لم أر غيره يُراعي هذه الفائدة فيما يورده»[١]. وقد انتقد الإمام الذهبي الحافظين: أبا نُعَيْم الأصبهاني والخطيبَ البغداديَّ، وذَنَّبَهما بروايتهما الموضوعات في كتبهما وسكوتهما عنها[٢]. ثم وجدنا الذهبي بعد ذلك يسحب هذا النقد الحديثي ويُطبقه على الروايات التاريخية والأدبية ونحوها، وبذلك تحصلت في هذا الكتاب ثروة نقدية على غاية من الضخامة، يلمُسها كُلُّ من يُطالع الكتاب، أو يتصفحه لا سيما في مجلداته الأولى. وقد وجدنا الذهبي بعد ذلك لا يقتصِرُ على أسلوب واحد في النقد، بل يتوسل بكل ممكن يُوصله إلى الحقيقة، فنقد السند والمتن، واستعمل عقله في رد كثير من الروايات.

أ ــ نقد السند:

ويكون هذا النقد عادة بتضعيف السند بسبب الكلام في أحدٍ من رواته أو أكثر، أو تقويته استناداً إلى مقاييس المحدِّثين، ويحكم عليه وفقاً لذلك ويستعمل التعبيرات الفنية الدالة على قوة الإسناد أو تقويته نحو قوله[٣]: «إسناده صالح»، و«إسناده جيد»، و«رواته ثقات»، و«له عِلَّة غير مؤثرة»، أو العبارات الدالة على ضعف الإسناد أو تضعيفه نحو قوله: «إسناده ليس بقوي»، و«في إسناده لين»، و«فيه انقطاع»، و«إسناده ضعيف»، و«إسناده

(١) الوافي: ٢ / ١٦٣.

(٢) الميزان: ١ / ١١١.

(٣) أمثلة ذلك مبثوثة في جميع الكتاب ولم نر كثير فائدة في إيراد أماكن وجودها حيث يستطيع القارىء الوقوف على مئات من ذلك بمجرد تصفحه للكتاب.

واهٍ»، و«إسناده مظلم»، وهلم جراً. أو يبين سبب ضعف السند بتعيين أحد رواته أو ما يشبه ذلك نحو قوله في إسناد فيه داود بن عطاء «وداود ضعيف»[(١)]، وقوله عن سند فيه صُهيب مولى العباس: «وصهيب لا أعرفه»[(٢)]، وقوله: «الحسن مدلِّس لم يسمع من المغيرة»[(٣)].

ويؤدي هذا النقد إلى إصدار أحكام دقيقة تبين مرتبة الحديث يشير إليها الذهبي من مثل قوله: «صحيح»، أو «متفق عليه»، أو «هو في الصحيحين»، أو «صحيح غريب»، أو «حسن»، أو «غريب» أو «غريب جداً»، أو «منكر»، أو «موضوع» ونحو ذلك مما يعرفه أهل العناية بهذا الفن الجليل.

ومن أجل توثيق الأحاديث والروايات عُنِيَ الذهبيُّ بنقلِ الأسانيد التي وردت في المصادر التي نقلَ عنها، ولم يكتفِ بايراد المصدر حسب، وهي طريقة تعينه على تقديم المصادر الأصلية التي اعتمدها المصدر الذي ينقل منه وتتيح له، وللقارىء، الفرصة لتقويم الحديث أو الخبر استناداً إلى ذلك الإسناد، ولعل المثال الآتي يُوضِّح هذه المسألة، قال في ترجمة الزبير بن العوام[(٤)]: «وقال الزبير بن بكار: حدثني أبو غزية محمد بن موسى، حدثنا عبد الله بن مُصعب، عن هشام بن عُروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن جدتِها أسماء بنت أبي بكر، قال: . . .»، وقوله: «الدُّولابي في «الذُّرية الطاهرة»: حدثنا الدقيقي، حدثنا يزيد، سمعت شريكا، عن الأسود بن قيس. . .»، فهو كان يستطيع أن يكتفي بالقول «وقال الزبير بن بكار» أو «الدُّولابي في الذرية

---

(١) السير: ٢ / الترجمة: ١١.

(٢) نفسه.

(٣) السير: ١ / الترجمة: ٤ (بتحقيق العالم شعيب الأرناؤوط).

(٤) السير: ١ / الترجمة: ٣.

الطاهرة». وهذا منهج انتهجه في معظم أقسام كتابه وهو يدل على دقة ومنهج متميز وعقلية نقدية في غاية الرقي.

ثم وجدنا الذهبي بعد ذلك لا يكتفي بنقد السند في كثير من الأحاديث والروايات التي يُوردها ويُضعفها استناداً إلى ضعف في سندها، بل يُحاول جاهداً إيراد ما يقوي هذا التضعيف من الأدلة التاريخية التي تتوافر له، من ذلك مثلاً ما جاء في ترجمة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[١]: «أبو الحسن المدائني، عن يزيد بن عياض، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: دخل عيينة بن حصن على رسول الله ﷺ، وعنده عائشة وذلك قبل أن يضرب الحجاب فقال: من هذه الحميراء يا رسول الله... الحديثَ» حيث علق الذهبي بقوله: «هذا حديث مرسل، ويزيد متروك، وما أسلم عيينة إلا بعد نزول الحجاب»، ثم أفاض في نقد الحديث وكان يكفيه بعض من هذا لرد الحديث.

ب ـ نقد المتن:

وهو الذي يقوم على نقد متنِ الرواية وتحليلها وعرضِها على الوقائع التي هي أقوى منها، ومعارضتها بها، ودراسة لغة الخبر وغيرها، واستخدام جميع الوسائل المُتاحة للناقد التي تُثبت دعواه. وقد عُني الإمامُ الذهبي في هذا النوع من النقد عناية بالغة في هذا الكتاب، فرد مئات الروايات وأبطلها بنقده المتين وأسلوبه العلمي المتزن الذي ينبىء عن غزارة علم ونَبالة قصد، وقدرة فائقة، وسعة اطلاع. فمن ذلك مثلاً تعليقه على الخبر الذي يشير إلى أن العباس بن عبد المطلب أسلم قبل بدر وأنه طلب القدوم إلى المدينة وأن

---

(١) السير: ٢ / الترجمة: ١٩.

الرسول ﷺ طلب منه البقاء فأقام بأمره، بقوله: «ولو جرى هذا لما طلب من العباس فداء يوم بدر»[١]. ومن ذلك حكاية عن عائشة: «فَخَرتُ بمال أبي في الجاهلية وكان ألف ألف أوقية... الحكايةَ»، قال: «وإسنادها فيه لين. واعتقد لفظة ألف الواحدة باطلة، فإنه يكون أربعين ألف درهم، وفي ذلك مفخر لرجل تاجر، وقد أنفق ماله في ذات الله. ولما هاجر كان قد بقي معه ستة آلاف درهم فأخذها صحبته، أما ألف ألف أوقية فلا تجتمع إلا لسلطان كبير»[٢]. ومثل هذا كثير في كتابه وهو أمر يدحض رأي من قال: إن المحدثين قصروا نقدَهم على إسناد الحديث ولم ينظُروا إلى متنه.

٣ ـ التعصب والإنصاف في النقد:

كان مِن منهج الذهبي نقلُ آراء الموافقين والمخالفين في المترجَم ليقدم صورة كاملة عنه، وهو طابع عام في كتابه تجده في كل ترجمةٍ من تراجمه، بينما اقتصر آخرون على إيراد المدائح في كتبهم مثل السبكي «ت ٧٧١ هـ» وغيره. كما أن الذهبي عُني بترجمة عددٍ كبير من المعاصرين له ولا سيما في معجمه الكبير، ومعجمه المختص بالمحدثين، ولا ريبَ أنه نقد بعضهم، فلم يُعجبهم ذلك، وتأذَّى البعضُ منهم، وغضبَ غضباً شديداً مثل شمس الدين محمد بن أحمد بن بصخان المقرىء المتوفى سنة ٧٤٣ هـ الذي ترجم له الذهبي، وأورد بعض ما فيه من القدح. فكتب ابنُ بصخان هذا بخط غليظ على الصفحة التي بخط الذهبي كلاماً أقذع فيه بحق الذهبي بحيث صار خطُّ الذهبي لا يُقرأ غالبه[٣].

---

(١) السير: ٢ / الترجمة: ١١.

(٢) السير: ٢ / الترجمة: ١٩.

(٣) السخاوي: «الإعلان» ص ٤٧٠، وانظر الذهبي: «معجم الشيوخ»م ٢ الورقة ٣٠ - ٣١.

وقد عرفنا من حياة الذهبي أنه رافق الحنابلة، وتأثَّر بشيخه ابن تيمية لا سيما في العقائد ، فكان شافعيَ الفروع، حنبليَّ الأُصول، ولذلك عُني عند النقد بإيراد العقائد على طريقةِ أهلِ الحديث، وعدَّها جزءاً منه كما بيَّنا قبل قليل. ووجدنا في البيئة الدمشقية في الوقت نفسه من يتعصب للأشاعرة غاية التعصب.

وبسبب العقائد انتُقِد الذهبيُّ من بعض معاصريه لا سيما تلميذه تاج الدين عبد الوهاب السبكي «٧٢٨ ـ ٧٧١ هـ» [١] في غير موضع من كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»[٢] وفي كتابه الآخر «معيد النعم»[٣]، فقال في ترجمته من الطبقات: «وكان شيخنا ـ والحق أحقُّ ما قيل، والصدقُ أَولى ما آثره ذو السبيل ـ شديدَ الميل إلى آراء الحنابلة، كثيرَ الازدراء بأهل السنّة، الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة، فلذلك لا يُنصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنفُ الراغم. صَنَّف التاريخ الكبير، وما أَحْسَنَهُ لولا تعصبٌ فيه، وأكمله لولا نقصٌ فيه وأي نقص يعتريه»[٤] وقال في ترجمة أحمد بن صالح المصري من الطبقات أيضاً: «وأما تاريخ شيخنا الذهبي غفر الله له، فإنه على حُسنه وجمعه مشحونٌ بالتعصب المفرط لا واخذه الله، فلقد أكثر الوقيعةَ في أهل الدين أعني الفقراء الذين هم

---

(١) اتصل السبكي بالذهبي سنة ٧٣٩ هـ ولم يبلغ آنذاك اثني عشر عاماً، ولازمه، فكان يذهب إليه في كل يوم مرتين، وقد ترجم له الذهبي في «معجمه المختص» انظر مقدمة «طبقات الشافعية».

(٢) انظر مثلاً ٢ / ١٣ فما بعد، ٣ / ٢٩٩، ٣٥٢ ـ ٣٥٣، ٣٥٦، ٤ / ٣٣، ١٣٣، ١٤٧، ٩ / ١٠٣ ـ ١٠٤ وغيرها.

(٣) «معيد النعم»، ص ٧٤، ٧٧.

(٤) ٢ / ٢٢.

صفوةُ الخلق، واستطال بلسانه على أئمة الشافعيين والحنفيين، ومال فأفرط على الأشاعرة، ومدح فزاد في المجسمة، هذا وهو الحافظ المِدْرَه، والإمامُ المبجل، فما ظنُّك بعوام المؤرخين»[١]. وذكر في موضع آخر أنه نقل من خط صلاح الدين خليل بن كيلكلدي العلائي» ٦٩٤ ـ ٧٦١ هـ»، وهو من تلاميذ الذهبي والمتصلين به[٢]، أنه قال ما نصه: «الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي لا أشكُّ في دينه وورعه وتحرِّيه فيما يقولهُ الناس، ولكنه غلب عليه مذهبُ الإثبات، ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه، حتى أثَّر ذلك في طبعهانحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات، فإذا ترجم لواحـدٍ منهم يُطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن، ويُبالغ في وصفه، ويتغافلُ عن غلطاته ويتأوَّلُ له ما أمكن، وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي ونحوهما لا يُبالغ في وصفه، ويُكثِرُ من قولِ من طعنَ فيه، ويُعيد ذلك ويُبديه، ويعتقده ديناً، وهو لا يشعر، ويُعْرِضُ عن محاسنهم الطافحة، فلا يستوعِبُها، وإذا ظفر لأحدٍ منهم بغلطةٍ، ذكرها. وكذلك فِعْله في أهل عصرنا، إذا لم يقدر على أحدٍ منهم بتصريحٍ يقولُ في ترجمته: والله يُصلحه، ونحو ذلك وسببه المخالفةُ في العقائد»[٣]. ثم ذكر السبكيُّ أن الحال أزيدُ مما وصف العلائي، ثم قال: «والذي أدركنا عليه المشايخ النهيُ عن النظر في كلامه، وعدم اعتبار قوله، ولم يكن يستجرىء أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يَغلِبُ على ظنه أنه لا ينقل عنه ما يُعاب عليه»[٤]

(١) ٩ / ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) ابن حجر: «الدرر» ٢ / ١٧٩ ـ ١٨٢.

(٣) «الطبقات» ٢ / ١٣.

(٤) نفسه ٢ / ١٣ ـ ١٤.

وبالغ السبكيُّ بعد ذلك، فقال: «إن الذهبي متقصد في ذلك، وأنه كان يغضبُ عند ترجمته لواحدٍ من علماء الحنيفية والمالكية والشافعية غضباً شديداً، ثم يقرطم الكلام ويمزقه، ثم هو مع ذلك غير خبير بمدلولات الألفاظ كما ينبغي، فربما ذكر لفظةً من الذم لو عقل معناها، لما نطق بها»[١].

وقد أثارت انتقاداتُ السبكي هذه نقاشاً بين المؤرخين، فرد عليه السخاويُّ «ت ٩٠٢ -هـ» حيث اتهم السبكيَّ بالتعصب الزائد للأشاعرة، ونقل قول عز الدين الكناني «ت ٨١٩ هـ» في السبكي: «هو رجلٌ قليلُ الأدب، عديمُ الإنصاف، جاهلٌ بأهل السنّة ورُتبهم[٢].

وقال يوسفُ بن عبد الهادي « ت ٩٠٩ هـ» في معجم الشافعية: «وكلامه هذا في حق الذهبي غير مقبول فإن الذهبي .كان أجلَّ مِن أن يقول مالا حقيقة له. . . والإنكارُ عليه أشدُّ من الإنكار على الذهبي لا سيما وهو شيخهُ وأستاذُهُ فما كان ينبغي له أن يُفرط فيه هذا الإفراط[٣]».

والحق أن السبكيَّ أشعريٌّ جلدٌ متعصب غايةَ التعصب، ولا أدلَّ على ذلك من شتيمته المقذعة في حق الذهبي في ترجمة أبي الحسن الأشعري من الطبقات، فقد سفَّ بها إسفافاً كثيراً بسبب عدم قيام الذهبي بترجمته ترجمة طويلة في «تاريخ الإسلام» ولأنه اكتفى بإحالة القارىء إلى كتاب «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر، فعدَّ ذلك نقيصَةً كبيرةً في حقِّ الأشعري[٤]. وقد قرأ

(١) نفسه ٢ / ١٤.

(٢) «الإعلان» ص ٤٦٩ فما بعد.

(٣) «معجم الشافعية»، الورقة ٤٧ ـ ٤٨ (ظاهرية).

(٤) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ١٣٢ ـ ١٣٣ (أحمد الثالث ٢٩١٧ / ٩). وقد وصف الذهبيُّ الأشعريَّ بأحسن الأوصاف، وذكر تصانيفه: وقال «مَن نظر في هذه الكتب عرف محله، ومن أراد أن يتبحر في معرفة الأشعري، فليطالع كتاب تبيين كذب المفتري. . . .».

السخاويُّ بخطه تجاه ترجمة سلامة الصياد المنبِجي الزاهد ما نصه: «يا مسلم استحي من الله، كم تُجازف، وكم تضع من أهل السنّة الذين هم الأشعرية، ومتى كانت الحنابلة، وهل ارتفع للحنابلة قط رأس»[١].

ومع ذلك فـإن هذه القضيةَ جديرةٌ بالدرس لأنها توضِّحُ أهميةَ كتاب الذهبي من جهة، ومنهجه ومدىٰ عدالته في النقد والتحرِّي من جهة أخرىٰ.

ولقد أبانت دراستُنا لتاريخ الإسلام أن الذهبي قد وُفِّق إلى أَنْ يكونَ مُنصِفاً إلى درجةٍ غيرِ قليلة في نقده لكثير من الناس، وما رأينا عنده تفريقاً كبيراً بين علماء المذاهب الأربعة، وما كان يرضىٰ الكلام بغير حقٍّ ولا حتى نقله في بعض الأحيان، قال في ترجمة الحسن بن زياد اللؤلؤي الفقيه الحنفي «قد ساق في ترجمة هذا أبو بكر الخطيب أشياء لا ينبغي لي ذكرها[٢]» وقال في ترجمة ابن الحريري الدمشقي الحنفي «ت ٧٢٨»: «قاضي القضاة علّامة المذهب ذو العلم والعمل[٣] وقوله في قاضي الحنفية شمس الدين الأذرعي «ت ٦٧٣»: «لم يخلف بعده مثله»[٤] وترجم لأبي جعفر الطحاوي ترجمةً رائقة، ودلل على سعة معرفته وفضله وعلمه الجم[٥] وقال في ترجمة عماد الدين الجابري الحنفي المتوفى سنة ٥٨٤هـ من «السِّيَر»: «شيخ الحنفية نعمان الزمان»[٦]، وقال في ترجمة المرغيناني الحنفي: «كان من أوعية العلم»[٧]

---

(١) «طبقات»، ٣ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣.
(٢) الورقة ١٨ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).
(٣) «مُعجم الشيوخ» م ٢ الورقة ٥١
(٤) الورقة ١٨ (أيا صوفيا ٣٠١٤).
(٥) الورقة ١١٤ (أحمد الثالث ٢٩١٧/٩).
(٦) سير أعلام النبلاء ٢١ / الترجمة : ٨٢.
(٧) نفسه ٢١/ الترجمة ١١٥ وانظر أمثلة أخرى في التراجم: ٣، ٣٦، ١١٤ من المجلد المذكور.

وهذا هو منهجه في معظم الحنفية لم نره تكلم في أحدهم بسبب المذهب، لا من الشافعية ولا المالكية، ولا الحنفية.

ولو قال السبكيُّ: إنه كان يتعصَّبُ على الأشاعرة حسب، لوجد بعض الآذان الصاغية، ولبحث له المؤيدون عن بضعة نصوصٍ قد تُؤيد رأيه، علماً أني بحثتُ في «تاريخ الإسلام» «وسير أعلام النبلاء» وغيرهما فلم أستطع أن أحصل على مثل يَصْلُح أن يسمىٰ انتقاداً لأشعري. نعم قد نجد بعض تقصير في تراجم قسم من الأشاعرة. وفي هذا المجال صرتُ أشعرُ أن سبب قصر بعض تراجم الأشاعرة، قد جاء من عدم قيام الذهبي بنقل آراء المخالفين بتوسع حباً منه للعافية، كما في ترجمة أبي الحسن الأشعري الذي لم يأت الذهبي بكلمة نقد فيه مع أنَّ الأشعري قضى القسم الأكبر من حياته معتزلياً، ونحن نعرف موقف الذهبي من المعتزلة. والواقع أن الذهبي ما بخس فضلَ هذا الرجل إلى درجة أنه عدّه مجدداً في أصول الدين على رأس المئة الرابعة[١]

أما كلام الذهبي في الصوفية، فصحيحٌ ما قاله السبكي، ولكن في النادر منهم، وهذا رأيٌ ارتآه الذهبي، واعتقدَ فيه وآمنَ به؛ فقد ميَّز بين طائفتين منهم.

أولا هما: كانت متمسكةً بالدين القويم، متبعةً للسنة، احترمهم الذهبيُّ الاحترام كُلَّه، بل لبس هو خرقة التصوف من الشيخ ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصاري السبتي عند رحلته إلى مصر[٢]، وكان يعتقدُ ببعض كراماتِ كبارِ الزهاد، ويُعنىٰ بإيرادها في كتابه، بل يكثِرُ منها عادة[٣]، ويُوردُ بعضَ

---

(١) تفسير للحديث الشريف «يبعث الله من يجدد... الحديث» وقد فسر الذهبي «من» لصيغة الجمع. انظر السبكي «طبقات»٣/٢٦.

(٢) تاريخ الإسلام، الورقة ١٢٦ (أيا صوفيا ٣٠١٢).

(٣) انظر تاريخ الإسلام مثلاً الورقة ٦، ١٨، ٢٠، ١٠٠، ١٧٥ (أحمد الثالث ٢٩١٧/٩).

أقوالهم وحكاياتهم في الزهد والمحبة فيه(١).

أما الثانية: فقد عدهم الذهبيُّ مارقين عن الدين، مشعوذين، بهم مسٌّ من الجنون، ومنهم الأحمدية(٢) أتباعُ الشيخ أحمد الرفاعي، والقلندرية(٣) وشيخُها جمال الدين محمد الساوجي فقد ذكر تُرَّهَاته وانغشاش الناس به، وبحاله الشيطاني(٤)، ووصف بعضَ أحوالهم في ترجمة يوسف القميني «ت ٦٥٧ هـ»فقال: «وكان يأوي إلى قمين حمام نور الدين، ولما توفي، شيَّعهُ خلقٌ لا يُحصونَ من العامة، وقد بصّرنا الله تعالى وله الحمد وعرَّفنا هذا النموذج... فقد عمَّ البلاءُ في الخلق بهذا الضرب... ومن هذه الأحوال الشيطانية التي تضل العامة: أكلُ الحيَّات ودخولُ النار، والمشي في الهواء ممن يتعانَىٰ المعاصي، ويُخل بالواجبات... وقد يجيءُ الجاهل، فيقول: اسكتْ، لا تتكلمْ في أولياء الله، ولم يشعر أنَّه هو الذي تكلَّم في أولياء الله ،وأهانهم إذْ أدخل فيهم هؤلاء الأوباش المجانين أولياء الشيطان(٥)».

ولم يكن الذهبيُّ متعصباً للحنابلة بالمعنى الذي صوَّره السبكي، فالرجلُ كان مُحدثاً يُحبُّ أهل الحديث، ويحترمهم، إلا أنَّ هذا لم يمنعه من تناول مساوىء بعضهم، فقد نَقَلَ عن الإمام ابن خُزيمةَ في ترجمة الطبري المؤرخ قوله: «ما أعلمُ على أديم الأرض أَعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته

---

(١) تاريخ الإسلام، مثلاً الورقة ١٥، ٢٠، ٢٦، ١٢٣، ١٥٥، ١٦٦، ١٥٤، ١٨٧، ٢٠٢، ٢١٥، ٢٣٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧/٩)، وسير أعلام النبلاء، مثلاً: ٢١/ التراجم: ٨٩، ٩٣، ١٠٦، ١٣٢... الخ.

(٢) «معجم الشيوخ» م١ الورقة ٤٠ علماً بأنه ترجم في «السير» للرفاعي ترجمة رائعة ووصفه بأنه «الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين» ٢١/ الترجمة ٢٦.

(٣) القلندرية: المحلقون أي الذي يحلقون رؤوسهم ولحاهم.

(٤) الورقة ١٠٤ (أيا صوفيا ٣٠١٢).

(٥) الورقة ١٧٤ (أيا صوفيا ٣٠١٣). وقمين الحمام: أتونه.

الحنابلة»، ثم قال الذهبي معقباً: «كان محمدُ بنُ جرير ممن لا تأخذُه في الله لومةُ لائم مع عظيم ما يلحقُه من الأذى والشناعات من جاهلٍ وحاسدٍ وملحد[١]». وقال في ترجمة عبد الساتر ابن عبد الحميد تقي الدين الحنبلي المتوفى سنة ٦٧٩ هـ: «ومهر في المذهب.. وقلَّ من سمع منه لأنه كانَ فيه زعارة، وكان فيه غلوٌ في السنة، ومنابذةٌ للمتكلمين ومبالغةٌ في اتباع النصوص... وهو فكان حنبلياً خشناً متحرقاً على الأشعري... كثير الدعاوىٰ قليل العلم[٢]».

ومع ما كان للذهبي من إعجابٍ بشيخه ابن تيمية فإنه أخذ عليه «تغليظه وفظاظته وفجاجة عبارته وتوبيخه الأليم المبكي المنكي المثير النفوس[٣]» كما أخذ عليه «الكِبْر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار[٤]». وقد رأىٰ في بعض فتاويه انفراداً عن الأمة، قال: «وقد انفرد بفتاوَى نيل من عِرضه لأجلها، وهي مغمورةٌ في بحر علمه ـ فالله تعالى يسامحه ويرضىٰ عنه ـ فما رأيتُ مثله، وكلُّ أحدٍ من الأمة فيُؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا[٥]؟».

وقد بلغ حرص الذهبي في النقد وشدة تحريه أنه تكلَّم في ابنه أبي هريرة عبد الرحمن فقال: إنه حفظ القرآن، ثم تشاغل عنه حتى نسيه[٦].

ولستُ هنا في حال دفاعٍ عن الرجل فكتاباته خيرُ مُدافعٍ عنه، وهي

---

(١) الورقة ٤٥ (أحمد الثالث ٢٩١٧/٩).
(٢) الورقة ٦٦ (أيا صوفيا ٣٠١٤).
(٣) الورقة ٣٣٢ من النسخة السابقة.
(٤) «بيان زغل العلم» ص ١٧ ـ ١٨.
(٥) «تذكرة الحفاظ» ٤ / ١٤٩٧.
(٦) السخاوي: «الإعلان» ص ٤٨٨.

الحكم في تقويمه، ولكنني أقولُ: إنَّ تحقيقَ كثيرٍ من الإنصاف، وإن لم يكن كُلَّه، أمرٌ له قيمته العُظمى في كُلِّ عصر.

ثامناً ـ أهمية كتاب السير:

السير ليس مختصراً لتاريخ الإسلام:

ذكرنا عند الكلام على منهج «السير» أن الذهبي عُني بذكر «الأعلام» وأسقط المشهورين، ولكن هذا لا يعني أن المؤلف استلَّ جميعَ تراجم الأعلام من «تاريخ الإسلام» فذكرهم في هذا الكتاب وإن كان كل عَلَم مذكور في هذا الكتاب قد تناوله المؤلفُ في «تاريخ الإسلام» تقريباً، فقد وجدنا بعد دراستنا للكتابين جملة فروق أساسية بينهما، إضافة لما ذكرنا، من أبرزها:

١ ـ أن المؤلف كتب تراجم الصَّدر الأول من «السِّيَر» بشكل يختلف اختلافاً تاماً عما كتبه في «تاريخ الإسلام»، فمعظم تراجم الصدر الأول هذه تراجم حافلة لا يُمكن مقارنتُها مِنْ حيث غزارة الأخبار، وجودةُ التنظيم بمثيلاتها في «تاريخ الإسلام»، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً يلمُسها الباحث عند دراسته للكتابين المذكورين، واكتفي هنا بمثل واحد يدعم هذا الذي أذهب إليه: فقد ترجم الذهبي في «السِّير» لأزواج النبي ﷺ وبناته تراجم حافلة استغرقت عشرات الصفحات[1] مما لا نجد له مثيلاً من حيث غزارة المادة والسعة في تاريخه حيث لم يذكر عنهن هناك إلا النزر اليسير.

٢ ـ ألف الذهبي مجموعة كبيرة من السير الخاصة بالرجال البارزين في تاريخ الإسلام وأفردها بمؤلفات مستقلة[2]، فلما ألف «سير أعلام النبلاء»

---

(١) أنظر المجلد الثاني من «السير» وقارن تاريخ الإسلام: ٢ / ٤١٤ ـ ٤١٩ (ط. القدسي الثانية).

(٢) أنظر كتابي: الذهبي ومنهجه: ٢٠٢ ـ ٢١١.

أدخل معظم هذه المادة الواسعة في الكتاب الجديد،وقد أشار تلميذه الصلاح الصفدي إلى هذا الأمر حينما قال: «وله في تراجم الأعيان لكل واحد مصنف قائم الذات. . . ولكنه أدخل الكل في تاريخ النبلاء»[1]، وهذه المادة لا نجد لها مثيلاً من حيث السعة والدِّقة في تاريخه الكبير، والتراجم الموجودة في «السير» تشهد بذلك مثل تراجم: أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وعائشة، وسعيد بن المسيب، وابن حزم، وغيرها.

٣ ـ وقد لاحظنا في الوقت نفسه أن إضافات الذهبي إلى تراجم «الأعلام» في الأقسام الوسطى والأخيرة من الكتاب قليلة عما ذكره في «تاريخ الإسلام» لكننا وجدنا أيضاً استدراكات وتصحيحات وتصويبات ونقدات، فضلاً عن إعادة صياغة الترجمة والانتقاء.

٤ ـ ووجدنا الذهبي يُضيف عناصرَ جديدة للترجمة في «السِّيَر» مما لم يذكره في «تاريخ الإسلام»، من ذلك مثلاً عنايته بذكر عدد الأحاديث التي رواها أصحاب الكتب المشهورة في الحديث للمترجم، كالصحيحين والسنن الأربع ومسند بقي بن مخلد وغيرها نحو قوله في ترجمة أبي عبيدة ابن الجراح: «له في صحيح مسلم حديث واحد، وله في جامع أبي عيسى حديث، وفي مسند بقي له خمسة عشر حديثاً»،وقوله في ترجمة سعد بن أبي وقاص: «وله في الصحيحين خمسة عشر حديثاً، وانفرد له البخاري بخمسة أحاديث، ومسلم بثمانية عشر حديثاً. . . وقع له في مسند بقي بن مَخْلَد مئتان وسبعون حديثاً»، وقوله في ترجمة عبد الله بن مسعود: «اتفقا له في الصحيحين على أربعة وستين، وانفرد له البخاري بإخراج أحد وعشرين

---

(١) الوافي: ٢ / ١٦٣.

حديثاً، ومسلم بإخراج خمسة وثلاثين حديثاً، وله عند بقي بالمكرر ثمان مئة وأربعون حديثاً»، وهلم جراً، وقلما ترك أحداً من رواة الحديث من غير الإشارة إلى ذلك، وهذه الإضافات، فضلاً عن عدم ورودها في «تاريخ الإسلام»، فإنها ثروة كبيرة مضافة يعرف حق قدرها الفضلاء المتخصصون، وهي تدل على اطلاع عظيم وتدقيق كبير[١].

٥ ـ يضاف إلى كل الذي ذكرتُ أن الذهبي قد ألف «السِّيَر» بعد «تاريخ الإسلام» بل بعد تأليف عدد من كتبه الأخرى، وهو أمر يُؤدي إلى ميزتين رئيستين: أولاهما الإضافات الجديدة وإعادة التنظيم، وثانيتهما تشير إلى أنه أعاد النظر في المادة المقدمة طيلة تلك المدة فذكرها بعد أن زادها تحقيقاً وتمحيصاً وأنها تمثل الشكل الذي ارتضاه في أواخر حياته العلمية الحافلة بِجلائل المؤلفات.

أهميته في تاريخ الحركة الفكرية:

وكتاب «السِّير» من أضخم مؤلفات الإمام الذهبي بعد كتابه العظيم «تاريخ الإسلام»، وقد حصر مادة ضخمة في تراجم الأعلام لمدة امتدت قرابة السبع مئة سنة فضلاً عن التوازن في نطاقه المكاني الذي شمل جميع الرقعة الواسعة التي امتد إليها الإسلام من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وفي الشمول النوعي للمترجمين في كل ناحية من نواحي الحياة وعدم اقتصاره على فئة أو فئات معينة منهم، بحيث صار واحداً من الكتب التي يقل نظيرها ويعزُّ وجودها في تاريخ الحركة الفكرية العربية الإسلامية، ونتيجة لذلك

---

(١) أنظر أمثلة من ذلك في «السير»: ٢ / التراجم: ١، ٢، ٤، ١١، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ ... إلخ.

أصبح الكتاب مصوراً لجوانب كثيرة من الحركة الفكرية وتطورها عبرَ سبع مئة سنة، لأن الإنسان هو العنصر الحاسم في هذه الحركة، وبه تتحدد مميزاتها وسماتها، ويؤثر تكوينه الفكري على تطورها سلباً أو إيجاباً.

أهميته في دارسة المجتمع:

ولما كان الكتاب قد اقتصر على التراجم، فإنه أشار إلى اتجاه الذهبي وجملة كبيرة من المؤرخين المسلمين نحو تخليد المبرزين في المجتمع، ولذا فهو في غاية الأهمية لدارسة أحوال المجتمع الإسلامي، ومنها الأصول الاجتماعية والاقتصادية لمن عرفوا في التاريخ الإسلامي باسم «العلماء». ودراسة مثل هذه الكتب تُشير إلى إنعدام الطبقية بين المتعلمين، وأن تقدير الإنسان إنما يكون وفق مقاييس راقية أبرزُها علمه ومعرفته ودرايتُه التي تجعله في مكانة بارزة بين الناس، وهي موازين على غاية من الرقي الإنساني. وقد جربنا المؤلف وهو يمدح فقيراً ويذم غنياً، ويثني على عبد أسود، ويتكلم في سيد كبير. وقد أبانت دراستنا لهذا الكتاب أن الغالبية العظمى من هؤلاء «العلماء» قد ظهرت من بين عوائل الحرفيين والمغمورين والمعدمين، تدل على ذلك انتساباتهم التي ذكرها المؤلف، وهو أمر أتاحه الإسلام لكل متعلم حينما جعل طلب العلم من الضرورات، وحض عليه في غير ما مناسبة، كما تميزت الدراساتُ بحرية التفكير والإبداع، وكانت متوفرةً لكل واحد يطلبها متى أراد ومن غير كلفة، لأنها كانت في الأغلب في بيوت الله، مِن مساجد وجوامع مما يستطيع كل مسلم دخولها، والإفادة من الدروس التي تُلقى فيها. نقول هذا في الوقت الذي اقتصرت فيه النواحي العلمية ومحتويات كتب التراجم عند كثير من الأمم ـ ومنهم الأوربيون ـ في هذه الأعصر على فئات معينة من الناس.

هذا التحقيق:

ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب النفيس، ويُعلي مكانتَه بينَ الكتب أن الله سبحانه قد يَسَّر ظهورَهُ بهيئةٍ علميةٍ رائعة، وصِفَةٍ بارعة نافعة تَسُرُّ كُلَّ محب للتراث، حريص عليه.

وهذا المجهودُ العلمي الجليل في أَعْسر فَن من فنون التاريخ ـ وهو فن التراجم ـ لم يتحقق عبثاً؛ فقد هيأ الله جل جلالُه لتحقيقِ هذا الكتاب ونشره عواملَ النُجح كلها، إذ يَسَّرَ له ناشراً فاضلاً هو الأستاذ رضوان دعبول الذي وجَدَ نفسه بحقٍ صاحبَ رسالة في نشر العلمِ النافع من عيونِ التراث العربي الإسلامي. وقد وجدتُ الرجلَ يبذُلُ مَاله ويُسَخِّرُ كُل قدراته لهذا الغرض النبيل، ويركبُ الصعبَ والذلول، فيُقْدِمُ على مشروعٍ أقلُّ ما يُقال فيه: إنه أعجزَ جامعة الدول العربية التي أرادت نشرَ هذا الكتاب منذ ثلاثين عاماً ولم تخرج منه غيرَ نزر يسير شوهه التصحيف والتحريف وأقلَّ قيمته ونفعه كثرةُ السَّقْط حتى انعدمت فائدته أو كادت، فضلاً عن توقفها عن إتمامه، وعجزها فيه.

وحين أزمع هذا الفاضل على تحقيق «السِّيَر» وَفر له سُبلَ التوفيق والنجاح على أحسن مَوْفِر بأن نَدَبِ إلى الاشتغال فيه عدداً من المحققين البارعين الكُفاة، أجزلَ لهم العطاءَ، وحفظ حقوقهم كافةً، وهيَّأ لهم مستلزمات التحقيق الدقيق: من نُسَخٍ موثَّقَةٍ، ومصادر مكدسة في متناول أيديهم، فضلاً عن بذل المال الوافر في الطباعة الأنيقة الدقيقة والورق الفاخر، والصناعة المتقنة.

ثم تَوَّجَ عَمَلَهُ، وركب جُدَّةً من الأمر بأن نَدبَ لمراجعة الكتاب والإشراف على تحقيقه، وإصلاح ما قد يطرأ عليه من الغلط عالماً بَرَعَ

أصحابَهُ في عِلْمه، متأبهاً عن الشُّهرة، قديراً على تذليل الصَّعب، فَطيناً لإيضاح المبهم، كَفِياً بتيسير العسير، هو الأستاذ المحدِّث الشيخ شعيب الأرنَؤ وط.

وقد عرفتُ لهذا العالم القدير فضلَهُ الكبير على هذا السِّفر النفيس آثَر ذي أثير حين آشترط أن يُقام التحقيقُ على أفضل قواعده، لأنه وصاحبَه، ليسا ممن يؤثرون العاجل ويَذَرون الآجل. وشاهدتُه وهو يُمسك أصلَ النسخة الخطية والمُحقِّقُ يقرأ عليه عمله وهو لايسهو ولا يغفُل لحظة يُبيِّن المبهَم، ويُوضح الخَفي، ويَصرِفُ الوقت الطويل الثمين في تدقيق لفظ، أو ضبط حركة، ويُعيد ذلك ويُبديه، ويعدُّه أمانةً ودِيانةً، يَشُدُّ به أزرَ المحققين، فضلاً عن قيامه بتخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب ـ وهي بليغة الكَثْرَة ـ وفقَ الأصول والقواعد المتبعة في علم المصطلح، وهو اليوم فارس هذا الميدان الخطير الذي ضرب آباطه ومغابِنه، واستشف بواطنه.

ولستُ هنا في حال ذكر ما عليه تحقيق الكتاب من تجود في الصنعة، وبراعة واتقان تمثلت في العناية الفائقة بتدقيق المقابلة، وتنظيم النص، ووضع النقط، والفواصل، والأقواس المتنوعة، وضبط كثير من الألفاظ التي يتعين ضبطُها، والإشارة إلى مناجم الكتاب بمقابلة نصوصه وأخباره على الموارد التي استقى منها المؤلف، وتخريج التراجم على أمهات الكتب المعنية بها، وتخريج الأحاديث والآثار وبيان درجتها من الصحة والسقم، وغيره مما يطول ذكره وتعداده، فإن العمل الذي بين يدي القارىء هو المُنبىء بكل ذلك ﴿وَقُلِ اعمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه والمُؤمنونَ وسَتُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنتم تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)

كتبه

الدكتور بشّار عوّاد معروف

مقدمة التحقيق

بقلم

الشيخ شعيب الأرنؤوط



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فإنَّ هٰذا السِّفْرَ العظيمَ الذي نُقدمه لِلقراء يُعَدُّ مِن أعظم كتبِ التراجم التي انتَهتْ إلينا مِن تُراث الأقدمين ترتيباً وتنقيحاً، وتوثُّقاً وإحكاماً، وإحاطةً وشُمولاً، فهو يُبينُ عن سَعة اطِّلاع المؤلف رحمه الله على كل ما سبقه مِن تواليفَ في موضوعه، ودِرايةٍ تامة بأحوال المترجمين، وبكل ما قِيل في حقِّهم، وقُدرةٍ بارعة على غربلة الأخبارِ وتمحيصِها وتنقيدِها، وبيانِ حالها.

ويتميَّزُ عن غيره مِن الكتب التي أُلِّفت في بابه أنَّه أوَّلُ كتابٍ عام لِلتراجم في تُراثنا، تنــاولَ جميعَ العُصورِ التي سَبَقَتْ عصرَ المؤلِف، واشتملَت تراجمهُ على الأعلام المختارَةِ من جميعِ العالَم الإسلامي مِن شرقه إلى غربه، ولم يقتصِرْ على نوعٍ معين من الأعلامِ، بل تنوَّعَتْ تراجِمُه، فشملَتْ كُلَّ فئاتِ الناس مِن الخُلفاء والملوكِ، والأمراء والوزراء، والقُضاة والقُرَّاء، والمحدِّثين والفُقهاء، والأُدباء واللغويين، والنحـاة والشعراء، والـزُّهَّاد والفلاسِفة والمتكلمين، إلا أنه آثر المُحدِّثين على غيرهم، فإنَّه كان عظيم الإكبارِ لهم، شديدَ الكلف بهم.

وقد ترجم فيه للأعلام النُّبلاء مِن بداية الإسْلام إلى سنة (٧٠٠ هـ) تقريباً، وكسره على خمسٍ وثلاثين طبقة[١]، كُلُّ طبقةٍ تستوعِبُ عشرين سنة، تقريباًوأفردالمُجَلَّدَيْنِ الأولَ والثانيَ للسِّيرة النبوية الشريفة، وسِيَر الخلفاءِ الراشدين، ولكنه لم يُعِدْ صِياغتهما، وإنما أحال على كِتابه العظيم «تاريخ الإسلام» لِتؤخذَ منه، وتُضَمَّ إلى السِّيَر، كما سنوضحه فيما بعد.

والمنهج العامُّ الذي اتَّبعه الذهبي في الترجمة هو أنه يذكُرُ اسمَ المترجم ونسبَه ولقبَه وكُنيته ونِسبتَه، ثم يذكُر تاريخَ مولِده[٢]،وأحوال نشأتِه ودراستَه، وأوجُهَ نشاطِه، والمجالَ الذي اختصَّ به، وأبدعَ فيه، والشيوخَ الذين التقى بهم، وروى عنهم، وأفادَ منهم، والتلاميذَ الذين أخذوا عنه، وانتفعوا بعلمه، وتخرَّجُوا به، وآثارَه العلميةَ، أو الأدبيةَ، أو الاجتماعية، ثم يُبيِّنُ منزلتَه مِن خلال أقاويلِ العُلماءِ الثِّقاتِ فيه معتمِداً في ذلك على أوثَق المصادر ذاتِ الصلة الوثيقةِ بالمترجَم، ثم يذكُرُ تاريخَ وفاته، ويُدقق في ذلك تدقيقاً بارعاً، ورُبَّما رجَّح قولاً على آخر عند اختلاف المؤرخين[٣].

وقد نثر غيرَ ما حديث في تراجم المحدِّثين مما وقع له مِن طريقهم بإسنادٍ عالٍ موافقةً أو بَدَلاً أو مُساواة.

وهو على الأغلب يُراعي في طُول الترجمة أو قِصرها قيمةَ المترجَم

---

(١) هذا إذا كان المجلد الرابع عشر ذيلاً للكتاب. وأما إذا كان من أصل الكتاب، وهو الذي رجحه الدكتور بشار عواد في تقديمه لهذا الكتاب فتكون أربعين طبقة.

(٢) عُني المؤلف بذكر تاريخ الولادة لِما لذلك من أهمية في الاطمئنان على لِقاء المترجم لمشايخه، وسماعاته عليهم، ويذكر أحياناً عمر المترجم إذا لم يذكر تاريخ مولده وذلك في نهاية الترجمة.

(٣) وقد يجدُ القارىء في بعض التراجم اختلافاً طفيفاً عما ذكرناه من المحتويات والتنظيم، وغيرُ خاف أن طبيعة المترجم هي التي تُحدِّدُ نوعية الأخبار، فقد عُني الذهبي مثلاً بإيراد أعمال الخلفاء والملوك والأمراء والولاة في تراجمهم، وأورد نماذج من شعر الشعراء، ومختارات من نثر الأدباء..

وشُهرتَه بينَ أهل علمه، أو منزلتَه بين الذين هُم من بابته، سواء أكانَ موافقاً له في المعتَقَدِ أو مخالِفاً، ورُبَّما تخلَّص مِن المادة الضَّخمة التي تحصَّلت له عن بعض المترجمين الأعلام بإحالة القارِىء إلى مصادرَ أوسع تناولته بتفصيلٍ أكثر.

وقد اتَّسم الذهبيُّ رحمه الله بالجُرأة النادِرَة التي جعلته ينتقِدُ كبارَ العلماء والمؤرخين، ويُنَبِّهُ على أوهامهم التي وقعت لهم فيما أُثِرَ عنهم بأسلوبٍ علمي متَّزِن يُنبىء عن غزارةِ علم، ونبالَةِ قَصْدٍ، وقُدْرَةٍ فائقةٍ في النقد، والأمثلةُ على ذٰلك كثيرة تجدُها مبثوثة في تضاعيف هذا الكتاب.

ولما كان الذهبي قد استوعبَ في «تاريخ الإسلام» فِئتينِ من المترجمين: المشهورين، والأعلامَ، فقد اقتصر في كتابه هذا على تراجم الأعلام النبلاء، إلا أنَّه قد يذكُر في نهاية بعضِ التراجم غيرَ واحد مِن المشهورين للتعريف بهم على سبيلِ الاختصار، وتحديدِ وفياتهم.

وقد يضطرُه اتفاقُ اسمِ أحد المشهورين باسمِ أحد الأعلام الذي يترجمه إلى ترجمة المشهور عقبه للتمييز.

وكثيراً ما جمع بعض الأسر المتقاربين في الطبقة في مكانٍ واحد وإن لم يكُونوا مِن تلك الطبقة، فهو يُترجِمُ لإخوة المترجم وأولاده ومن يلوذُ به.

وكتابُ «سير أعلام النبلاء» وإن كان قد اسْتُلَّ مِن «تاريخ الإسلام» فقد ألَّفه بعدَه، وأضافَ إليه أخباراً كثيرة لا وجودَ لها في «التاريخ»، وتناولَ أشياء بالنقد والتحقيق لم يتعرَّض لها في «تأريخه»، وصِياغة الترجمة فيه تختلِفُ في كثير من الأحيان عما عرضه في «تاريخ الإسلام».

وإنَّ هذا الكِتابَ القَيِّمَ بما تضمَّنه مِن مزايا يَنْدُرُ أن توجد في غيره مِن بابته

قد استحقَّ به مؤلفه مع كتابه الآخر العظيم «تاريخ الإسلام» أن يُسمى إمامَ المُؤرِّخِين.

وَصْفُ النّسخ

كان لدينا عند البدء بالعمل النسخُ التالية:

١ ـ نسخة مصورة عن أصل محفوظٍ في مكتبة أحمد الثالث في استنبول برقم (٢٩١٠)، وتقع في أربعة عشر مجلداً، المفقودُ منها المجلدُ الأخير.

٢ ـ نسخة مصوَّرة عن نسخة أحمد الثالث الثانية، والموجودُ منها سبعُ مجلدات.

٣ ـ مجلدان صورا من مكتبة الإمام اللكنوي بالهند.

٤ ـ مجلدان مصوران يملكُهما المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد اعتمدنا من بين تلك النسخ النسخةَ المصوَّرة عن الأصل المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث في استنبول برقم (٢٩١٠)، وهي نسخة نفيسةٍ، كتبت بِخَطٍّ نَسْخِيٍ جميلٍ في حياةِ المؤلف عن نسخته التي بخطه، ثم قُوبِلَت عِليها، وقد قام بنسخها لنفسه فرجُ بن أحمد بن طوغان الذي لم نظفَرْ له بترجمة تُبيِّنُ منزلتَه العلمية، إلا أنَّ هذه النسخة ـ وهي غايةٌ في الدقة والإتقان ونُدرةِ الخطأ، وكونِها مقابلة على أصل المؤلف ـ تشهَدُ له أنه مِن أهل المعرفة والضبط والإتقان.

وقد فَرَغ من نسخ المَجلدِ الثالث ـ وهو أولُ الكتاب ـ ليلةَ الجمعة، مستهلَّ شهر شعبان المبارك سنة تسع وثلاثين وسبع مئة، وفَرَغ مِن المجلد الثالث عشر سنةَ ثلاث وأربعين وسبع مئة كما جاء في آخر ورقة منه.

وقد جاء على الورقة الأولى:

المجلد الثالث مِن سير أعلام النبلاء تصنيف الشيخ الإمام العالم الأوحد الناقد البارع، إمام الحفاظ، مؤرخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمانِ الذهبي، أمتع الله ببقائه، ونفع المسلمين ببركة دعائه آمين يا رب العالمين.

وإلى جانبه مِن الجهة اليسرى كُتِبَ بخط دقيق - هو خطُّ المصنف رحمه الله كما تبين لنا وللدكتور بشار عواد المتخصص بدراسته - ما يلي:

«في المجلَّد الأول والثاني سيرةُ النبي ﷺ والخلفاء الأربعة تُكتب مِن تاريخ الإسلام».

وإلى الأسفل من ذلك جاء نص الوقفية التالي:

وَقَفَ وحبَّس وسبَّل المقرُّ الأشرف العالي الجمالي محمود[1] استادار العالية الملكي الظاهري أعز اللهُ أنصارَه، وختم بالصالحات أعمالَه جميعَ هذا المجلدِ وما بعده من المجلدات إلى آخر الكتاب، وعِدَّةُ ذلك اثنا عشر مجلداً متوالية من هذا المجلد إلى آخر الرابع عشر، وما قَبْلَ ذلك وهما الأول والثاني مفقودان، وقفاً شرعياً على طلبة العلم الشريف ينتفعِون به على الوجه الشرعي، وجعل مقرَّ ذلك بالخزانة السعيدة المرصدة لذلك بمدرسته التي

---

(١) ترجمه ابن حجر في «الدرر الكامنة» ٦ / ٨٧، فقال: هو محمود بن علي بن أصفر عينه جمال الدين الاستادار في أيام الملك الظاهر برقوق، جاء إلى حلب قبل أن يلي الاستادارية، ثم سافر إلى مصر، وبنى بالقاهرة مدرسة خارج باب زويلة، ووقف عليها كتب ابن جماعة التي اشتراها بعد موته وهي كثيرة جداً، وتنقلت به الأحوال، وحصل أموالاً جزيلة تفوق الحصر، وصودر مراراً بعد الحرمة العظيمة والوجاهة بالدولة الظاهرية. مات سنة ٧٩٧ هـ. ١ هـ. وقد ذكر المقريزي أنه كان في هذه المدرسة خزانة لا يعرف يومئذ بديار مصر ولا الشام مثلها، فقد كان فيها كتب الإسلام من كل فن.

أنشأها بخط الموازين بالشارع الأعظم بالقاهرة المحروسة.

وشرط الواقف المشار إليه أن لا يخرج ذلك ولا شيءُ منه من المدرسة المذكورة بِرَهْنٍ ولا بغيره، وجعل النظرَ في ذلك لنفسه أيامَ حياته، ثم مِن بعده لمن يؤول إليه النظرُ على المدرسة المذكورة على ما شرح في وقفها، وجعل لنفسه أن يزيدَ في شرط ذلك ويَنْقُصَ ما يراه دونَ غيره من النظار، كما جعل ذلك لنفسه في وقف المدرسة المذكورة ﴿فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمُه على الذين يُبدِّلونه إن الله سميع عليم﴾ [البقرة : ١٨١].

بتاريخ الخامس والعشرين من شعبان المكرم سنة سبع وتسعين وسبع مئة. حسبنا الله ونعم الوكيل.

شهد بذلك	شهد بذلك
عبد الله بن علي	عمر بن عبد الرحمن البرماوي

وهذه النقول تدل على جملة أمور:

١ ـ أن المجلد الأول والثاني من هذا الكتاب الضخم لم يُعد الذهبي صياغتهما، وإنما اكتفى بما كتبه في تاريخ الإسلام وقد أحال عليه[1].

٢ ـ أن من قال: المجلد الأول والثاني مفقودان هو واهم.

٣ ـ أن النسخة الموجودة في مكتبة أحمد الثالث الآن كانت وقفاً على المكتبة المحمودية في القاهرة.

٤ ـ أن المجلد الرابع عشر كان موجوداً في المكتبة المحمودية قبل أن

(١) وفيهما سيرة النبي ﷺ وتراجم الخلفاء الراشدين، وكان علينا أن نبدأ بنشرها أولاً، ولكن عاقنا عن ذلك عدم توفر أصل جيد حينذاك، وأما الآن، فقد تيسر لنا بفضل الله وتوفيقه مجلد السيرة النبوية بخط المؤلف رحمه الله، وسنشرع في تحقيقه إن شاء الله.

تنتقل النسخة إلى مكتبة أحمد الثالث باستنبول. وهل هذا المجلد هو مِن تمام الكتاب كما هو ظاهر من نص الوقفية المثبت على كل المجلدات، أم أن الكتاب انتهى بالجزء الثالث عشر، وأن هذا الجزء هو الذيل على الكتاب للمؤلف، الذي استمد منه الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة ١ / ٣٠ كل ذلك محتمل، ولكن الجزم بواحد منهما ينتظر الدليل القاطع.

وصف مجلدات هذه النسخة:

١ ـ المجلد الثالث: يبدأ بترجمة أبي عبيدة عامرِ بن الجراح، وينتهي بترجمة أبي هريرة، ويبلغ عدد أوراقه (٢٥٢) ورقة. وقد جاء في آخره: وكان الفراغُ مِن نسخه ليلةَ الجمعة لمستهل شهر شعبان المبارك سنة تسع وثلاثين وسبع مئة.

٢ ـ المجلد الرابع: يبدأ بترجمة أبي بكرة نُفيع بن الحارث مولى النبي ﷺ، وينتهي ببداية ترجمة سعيد بن أبي الحسن البصري، ويبلغ عدد أوراقه (٢٨٦) ورقة عدا الورقة الأخيرة التي جاء فيها ما نصه: تم الجزء الرابع من سير أعلام النبلاء للشيخ الإمام الحجة شمس الدين بن الذهبي فسح الله في مدته، وهو أول نسخة نسخت من خط المصنف وقوبلت عليه، ويتلوه في الجزء الذي يليه وهو الخامس: أبو بردة بن أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري رضي الله عنه، وكان الفراغ من نسخه في سنة تسع وثلاثين وسبع مئة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وسلم.

وما بين الورقة (٢٨٦) وهذه الورقة نقص يقدر بثماني ورقات، وفيه من التراجم على التوالي تتمة ترجمة سعيد بن أبي الحسن البصري والأخطل،

والفرزدق، وجرير، وبشير بن يسار، وبسر بن عبيد، والأحوص الشاعر، ويزيد بن أبي مسلم، وأبو بحرية بسر بن سعيد، وسبلان، وسليمان، وزياد الأعجم، والراعي، والضحاك، وطلق بن حبيب، والضحاك عبد الله، وابنه عبيد وزياد بن جبير، ومحمد بن سيرين، وأنس بن سيرين.

وما ندري: هل هذا النقص من الأصل الأم المودع في مكتبة أحمد الثالث أم أنه سقط عند التصوير، ولم يتيسر لنا التأكد من ذلك إلى الآن، ونرجو أن نوفق إليه في المستقبل إن شاء الله، وقد استدركنا هذا النقص من النسخة الأخرى كما هو مبين في مكانه.

٣ ـ المجلد الخامس: يبدأ بترجمة أبي بردة بن أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري، وينتهي بترجمة سعيد بن أبي عروبة، وعدد أوراقه (٢٩٣) ورقة. وجاء في آخره: وكان الفراغ من نسخه سنة أربعين وسبع مئة.

٤ ـ المجلد السادس: يبدأ بترجمة معمر بن راشد اليماني، وينتهي بترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري، وعدد أوراقه (٢٩٣) ورقة، وقد جاء في آخره: وكان الفراغ من نسخه سنة أربعين وسبع مئة.

٥ ـ المجلد السابع: يبدأ بترجمة الحافظ المحدث زياد بن عبد الله البكائي، وينتهي بترجمة ابن أبي سمينة الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الهاشمي، وعدد أوراقه (٢٩١) ورقة، وقد جاء في آخره: وكان الفراغ من كتابته ليلة الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وسبع مئة.

٦ ـ المجلد الثامن: يبدأ بترجمة الحكم بن موسى البغدادي، وينتهي بترجمة اليسع بن زيد بن سهل الزينبي، وعدد أوراقه (٢٩١) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ من كتابته ليلة الاثنين لخمس مضين من شهر رمضان المعظم سنة أربعين وسبع مئة.

٧ ـ المجلد التاسع: يبدأ بترجمة عبد الله بن روح المدائني، وينتهي بترجمة أبي جعفر أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري، وعدد أوراقه (٢٨٢) ورقة، وينقص الورقة (٥٠) وقد استدركناها من نسخة أحمد الثالث الثانية، وجاء في آخره: وكان الفراغ منه لليلتين خلتا من شهر ذي الحجة سنة أربعين وسبع مئة.

٨ ـ المجلد العاشر: يبدأ بترجمة حماد بن شاكر، وينتهي بترجمة ابن أخي ميمي أبي الحسن محمد بن عبد الله البغدادي الدقاق، وعدد أوراقه (٢٩٠) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ منه ليلة الأحد لعشر خلون من شهر رجب سنة إحدى وأربعين وسبع مئة. وقد نقص من هذا المجلد الورقة (٢٨١).

٩ ـ المجلد الحادي عشر: يبدأ بترجمة صاحب الموصل حسام الدولة مقلد بن المسيب، وينتهي بترجمة أبي يوسف القزويني المعتزلي، وعدد أوراقه (٢٨٨) ورقة.

١٠ ـ المجلد الثاني عشر: يبدأ بترجمة أبي سعيد الدباس، وينتهي بترجمة ابن بُنيمان الهمذاني المؤذن المؤدب، وعدد أوراقه (٢٧٨) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ من كتابته ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وسبع مئة. وينقص هذا المجلد الورقة (٤٥).

١١ ـ المجلد الثالث عشر: ويبدأ بترجمة الحافظ أبي طاهر السِّلَفي، وينتهي بترجمة علي بن المعز الملقب بالمنصور، وعدد أوراقه (٣١٨) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ منه لليلتين خلتا من شهر صفر سنة ثلاث وأربعين وسبع مئة.

وصف نسخة أحمد الثالث الثانية:

١ ـ المجلد الثالث : يبدأ بترجمة أبي بردة الأشعري، وينتهي بترجمة ابن أبي عروبة، ويبلغ عدد أوراقه (٢٠٤) ورقات، وتاريخ نسخه (١٠٠٢) هـ.

٢ ـ المجلد الخامس: يبدأ بترجمة هشام بن عبد الملك، وينتهي بترجمة صالح بن موسى، وعدد أوراقه (٢٠٠) ورقة، وتاريخ نسخه (١٠٠٢) هـ.

٣ ـ المجلد السادس: يبدأ بترجمة زهير بن معاوية، وينتهي بترجمة ابن أبي سمينة، وعدد أوراقه (٢٥٩) ورقة، وتاريخ نسخه(١٠٠٤) هـ.

٤ ـ المجلد السابع: ويبدأ بترجمة الحكم بن موسى، وينتهي بترجمة أبي زرعة الرازي، وعدد أوراقه (٢٣٤) ورقة، وتاريخ نسخه(١٠٠٢) هـ.

٥ ـ المجلد التاسع : يبدأ بترجمة ابن مروان، وينتهي بترجمة الإمام الداوودي، وعدد أوراقه (٢٥١) ورقة، وتاريخ نسخه(١٠٠٣) هـ.

٦ ـ المجلد العاشر: يبدأ بترجمة القشيري، وينتهي بترجمة الشيخ أرسلان الجعبري الدمشقي، وعدد أوراقه (٢٥٢) ورقة، وتاريخ نسخه (١٠٠٣) هـ.

٧ ـ المجلد الحادي عشر: يبدأ بترجمة أبي الحسين الزاهد، وينتهي بترجمة ابن البيطار، وعدد أوراقه (٢١٤) ورقة، وتاريخ نسخه(١٢١١) هـ.

وصف المجلدين المصورين عن مكتبة الإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي في الهند:

١ ـ المجلد السابع : يبدأ بترجمة الحكم بن موسىٰ، وينتهي بترجمة

إبراهيم الحربي، وعدد صفحاته (٦٨٠) صفحة، ويعود تاريخ نسخه إلى القرن التاسع.

٢ ـ الخامس عشر: يبدأ بترجمة زهير بن حسن السرخسي، وينتهي بترجمة رضوان بن السلطان تتش، وعدد أوراقه (٢٥٥) ورقة وتاريخ نسخه القرن التاسع.

ومن مصورة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلدان من نسخة مؤلفة من عشرين جزءاً، هما:

١ ـ الخامس: ويبدأ بترجمة أبي بردة الأشعري، وينتهي بترجمة حماد بن سلمة، ولم نجد فيه ما يشير إلى المصدر الذي أخذ عنه، وليس فيه تاريخ النسخ.

٢ ـ السابع عشر: ويبدأ بترجمة أبي البركات الفيلسوف، وينتهي بترجمة ابن حمويه، وفي آخره: تم المجلد السابع عشر من سير أعلام النبلاء، يتلوه المجلد الثامن عشر من تجزئة عشرين، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

مَنهَجُ التّحقِيق

لقد اتُّبِعَ في تحقيق الكتابِ المنهجُ التالي:

١ ـ تجزئة المجلدات الإحدى عشر إلى اثنين وعشرين جزءاً، لأنه يتعذَّر إخراجُ المجلد في جزء واحد لكبر حجمه، ثم دُفِعَ كُلُّ جزء إلى الأستاذ الذي سيقوم بتحقيقه ليتولى نسخه، وقد اتُّبِعَ في النسخ الرسمُ الإملائي الحديث.

٢ ـ قابلنا المنسوخَ على الأصل مُقابلةً دقيقةً متأنية، وكان الأستاذ شعيب الأرنؤوط ـ وهو المُشْرِفُ على تحقيقِ الكتاب ـ يُمْسِكَ الأصلَ بيده، ويقرأُ منه، والأستاذُ المُوكَلُ إليه تحقيقُ جُزءٍ يضبِطُ المنسوخ، ويُدوِّن الملاحظاتِ التي يُبديها الأستاذ المُشْرِفُ، وقد كان لهذه المقابلة فائدةٌ عُظمى في تدارك السَّقْطِ والتحريفِ اللَّذَيْنِ وقعا في المنسوخ، والاهتداءِ إلى معرفة أسماءِ الأعلامِ على الوجه الصحيح، فإنَّ كثيراً منها جاء في الأصل مُهملاً غيرَ منقوط[1].

٣ ـ ذكرنا المصادِرَ التي عُنِيَتْ بأخبارِ المُترجَمِ، سواءٌ منها التي تقدَّمت

---

(١) وقد أدىٰ التهاونُ بمقابلة المنسوخ على الأصل إلى وقوع ما يزيد على مئة سَقْطٍ يتراوح ما بين كلمة وجملة وسطر في الجزء الأول مِن هذا الكتاب المطبوع بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣، وقد بيناه في مواضعه مِن طبعتنا هٰذه، ودللنا عليه، كما بينا أيضاً السقط والتحريف اللَّذَيْن وقعا في الجزأين الثاني والثالث من الطبعة المذكورة.

وقد قال أئمة النقد: لا يجوز أن ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف دون مقابلة، ولا على نسخ نفسه بيده ما لم يُقابل ويُصحح، فإنَّ الفكرَ يذهب، والقلبَ يسهو، والنظرَ يزيغ، والقلمَ يطغى.

عصرَ المؤلف، أو جاءت بعدَه، مُتَوَخِّينَ في ذلك الاستيعابَ في حدود ما يتيسَّرُ لنا مِن مراجع.

٤ ـ راجعنا نصوصَ الكِتاب وأخبارَه على الموارِد التي نقل عنها المؤلفُ واستمدَّ منها مما أمكننا الوقوفُ عليه ما طُبِعَ منه وما لم يُطْبَعْ، وهو عملٌ شاق ومجهد، لكنه أعان على تدارُكِ ما وقع للمؤلف في بعض الأخبار التي يرويها بالمعنى مِن سَقْطٍ، أو وهم، أو اضطراب، وقد بُيِّنَ كُلُّ ذلك في التعليقات المنثورة في الأجزاء، وما أضفناه من الزيادة على الأصل، فقد ميزناه بوضعه بين حاصرتين.

٥ ـ نَسَّقنا مادَّةَ الكتاب تنسيقاً يُعين على فهم النَّصِّ فهماً صحيحاً، ففصلنا كلَّ خبر عن غيره، وميَّزنا النقولَ عن التعقبات، وجعلنا ابتداءَ النقول والأخبار من أول السطر.

٦ ـ وقد تحرينا التَّحرِيَ البالغَ في ضبط النص، وبخاصة الأسماء والكُنى والألقابَ والأنسابَ والمواضعَ والبُلدان، وهي أكثرُ الألفاظ تعرضاً للغلط ـ لأنها كما قالَ بعضُ القدماء: شيءٌ لا يدخُلُه القياسُ، ولا قَبْلَهِ شيءٌ ولا بعدَه شيءٌ يَدُلُّ عليه ـ فقد قمنا بضبطها، وإزالة الاشتباه عنها، بالشكل تارة ـ وهو الأغلب ـ وبالكتابة بالحرف تارة أخرى، معتمدينَ على أوثق المصادر التي تكفَّلَتْ ببيانِ ذلك، مثل: الإكمال: لابن ماكُولا، والمشتبه: للذهبي، وتوضيحه: لابن ناصر الدين الدمشقي، وتبصير المنتبه: لابن حجر، والأنساب: للسمعاني، واللباب: لابن الأثير، ومعجم البلدان: لياقوت الحموي، والروض المعطار: للحميري.

وما كان من الألفاظ يُضبطُ بوجهين أو أكثر، فقد أغفلنا ضبطه إشارةً إلى ذلك.

٧ ـ وقد تولَّى الأستاذُ شعيب الأرنؤوط تخريجَ الأحاديثِ والآثارَ الواردة في الكتاب ـ وهي كثيرةٌ جداً لا سيما في الأجزاء الأولى ـ مِن دواوين السنّة ومصادِرها المطبوعِ منها وما لم يُطبَع مما أمكن الوقوفُ عليه، فيذكُر الجزءَ والصفحةَ التي فيها الخبرُ، وحين يكونُ للمصدر أكثر من طبعة يُضيف ذكر الكتاب والباب تَيسيراً للقارىء الذي لا تتيسر له الطبعةُ التي رجع إليها.

ثم أبان عن درجة كُلِّ حديث مِن الصحة وغيرِها حسب الأصولِ والقواعدِ المتبعة في علم مصطلح الحديث.

ونُحِبَّ أن نؤكِّدَ هنا أن تنقيدَ الروايات، والتمييزَ بينَ صحيحِها وسقيمِها أمرٌ تجدر العناية به أكثرَ مِن غيره في تحقيق التراث، لا سيما في عصرنا هذا الذي كاد أن ينقرِضَ فيه هذا العلمُ، ونَدَرَ أن تجد من يُحسِنُ أن يتولاه، ويصبِرَ على مُعاناته، فإن كثيراً من الأحاديثِ والأخبارِ الضعيفة والموضوعةِ المبثوثةِ في كتب التاريخ والتراجم، يتلقَّفُها الأدباء والكتّاب والخطباء والمدرسون على عواهنها، فتدورُ على ألسنتهم، أو يستشهدون بها في مؤلَّفاتهم وخُطبهم، فيتلقَّاها عنهم عامةُ الناس، ويعتدُّونَ بها، ويعملون بما يُستفاد منها، وحدث ولا حرج عما تُلحِقُه تلك الأحاديث والأخبار مِن الضرر بجوانب كثيرة في الأمور الاعتقادية والعبادية، والسُّلوكية والفكرية والاجتماعية، وما يَنْجُمُ عنها مِن آثار سيئة، وانحرافاتٍ خطيرة، وتشويه لحقائق الإِسلام، وهذا ما دعانا إلى دراسة أسانيدِ الأخبار في هذا الكتاب، وتنقيد رواتها، ومعرفةِ ما يَصِحُّ منها وما لا يَصِحُّ، وبيانِ ذٰلك كُلِّه ليتسنى للقارىء أن يكونَ على بينةٍ من أمرها، فيطَّرِحَ كُلَّ ما هو ضعيفٌ منها، ويتجنبه، ويَحْذَرَ مِن الوقوع فيه.

ونرى أنه ينبغي لِكُلِّ من يتصدَّى لتحقيق كتاب في التاريخ، أو التراجم،

أو الحديث، أو التفسير أن تتحقَّقَ فيه مهارةُ المحدث البَارِعِ الخبيرِ بعلل الروايات ومواطِنِ الضعف فيها، وإذا لم يتيسر لَهُ ذلك، فليستعِنْ بذوي الخبرة والاختصاص بهذا الفنِّ الشريف.

٨ ـ وقد اشتملَتِ التعليقاتُ على شرح غريبِ الألفاظ والتعريف بالمواضع والأماكن، وبيانِ المصطلحات الحديثية التي استخدمها المؤلف كالوِجادة والبَدَل والموافقة وغيرِها، والتعريفِ ببعض أربابِ المقالات من الإسلاميين، وتنقيدِ المؤلفِ في بعض المواطن التي ترجَّح لدينا أنه قد جانب الصوابَ فيها.

٩ ـ وضعنا أرقاماً متسلسلة للتراجم الأصلية لكل جزء في بداية الترجمة، وتنتهي الأرقام عند نهاية كل جزء، ثم يبدأ الجزء الثاني بأرقام جديدة تبدأ من الواحد وهكذا.

١٠ ـ استعمل المؤلفُ رموزاً جرى المحدِّثون على استعمالها، فكتب مِن «حدثنا»: «ثنا»، ورُبَّما حذف الثاء، واقتصر على «نا»، وكتب مِن «أخبرنا»: «أنا» أو «أبنا»، وقد استعضنا عن الرمز بإثبات اللفظ بتمامه.

أما الرموز التي استعملها إشارة إلى من روى للمترجم من أصحاب الكتب الستة فأثبتنـاهـا كمـا هي في الجانب الأيسر من عنوان الترجمة، فاستعمل (ع) لأصحاب الكتب الستة، و(٤) لأصحاب السنن الأربعة، و(خ) للبخاري في الصحيح، و(خت) لما استشهد به في الصحيح تعليقاً، و(بخ) لما أخرجه في الأدب المفرد، و(م) لمسلم، و(د) لأبي داود، و(ت) للترمذي، و(س) للنسائي، و(ق) لابن ماجه القزويني.

وما كان مِن هٰذه الرموز في مَعْرِضِ سياق الخبر، فقد حذفناه، وأثبتنا

مكانَه الاسمَ بتمامه.

١١ ـ وقد صنعنا لِكل جزء فهرساً للمترجمين كما أوردهم المؤلف، وآخر على ترتيب حروفِ المعجم، وسنقوم بعون الله وتوفيقه عند نهاية طبع الكتاب بصُنع فهارس مفصلة تشمَلُ الآيات، والأحاديث، والأعلام، والأماكن، والشعر.

وقد بذلنا الجهد في تحقيق هذا السفر العظيم، وإخراجه على الوجه الذي يروق ويعجب، في حدود ما حبانا الله من علم، ومعرفة، وقدرة، فالمأمول من أهل العلم والفضل أن لا يبخلُوا علينا بما يبدو لهم أثناءَ مطالعة الكتاب مِن استدراكات وملاحظات سيكون لها أثرٌ حميد في استكمال النفع، وتوثيق التحقيق.

نسأل الله العظيم التوفيق والإعانة على إتمام تحقيق الأجزاء المتبقية من الكتاب، وإخراجها على غرار ما سبق، وعلى الله نتوكل وبه نستعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٢ / ربيع الأول ١٤٠١ هـ
١٧ / كانون الثاني ١٩٨١ م

المجلد الثالث من سير أعلام النبلا

تصنيف الشيخ الإمام العالم الأوحد الحجة الناقد البارع

إمام الحفاظ مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أمتع الله تعالى ببقائه

ونفع المسلمين ببركة دعائه آمين

يا رب العالمين

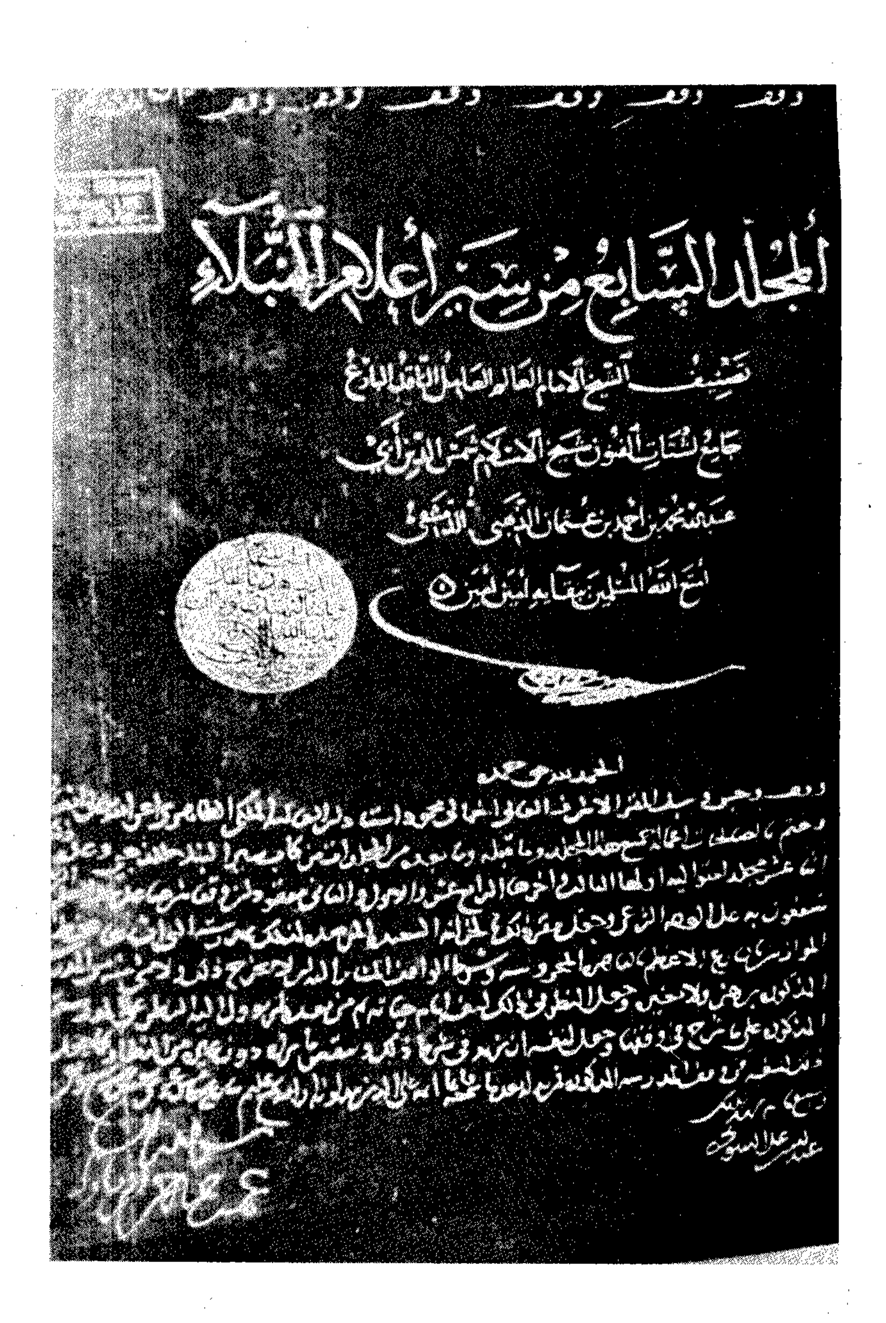
الورقة الأولى من المجلد الثالث نسخة أحمد الثالث الأولى وفيها إحالة المؤلف على كتابه «تاريخ الإسلام» ليؤخذ منه الأول والثاني المتضمنان سيرة النبي ﷺ وسير الخلفاء الأربعة.

تم [illegible] ويتلوه في الجزء الرابع ترجمة أبي بكر [illegible]
وكان الفراغ من نسخه [illegible] المبارك سنة [illegible]
والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم
تسليما

يبقى الخط بعدي في الكتاب وتبلى اليد مني في التراب
فيا ليت الذي يقرا كتابي دعا لي بالخلاص من الحساب

كتبت هذه النسخة المباركة من نسخة بخط المصنف [illegible] إمام
المحدثين مؤرخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد
ابن عثمان الذهبي فسح الله في مدته
ونفع المسلمين ببركته
بمحمد وآله وعترته

الورقة الأخيرة من المجلد الثالث نسخة أحمد الثالث الأولى.



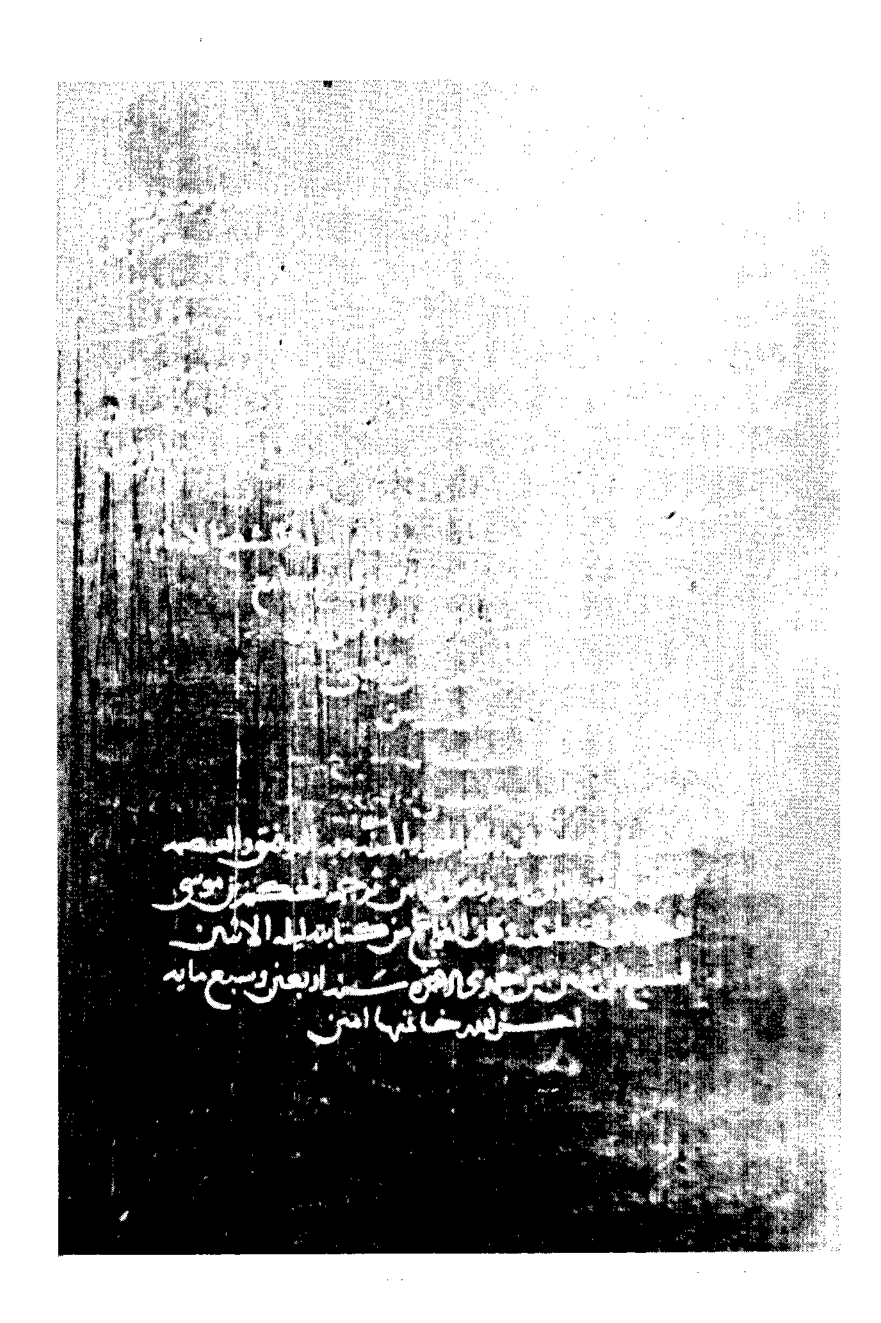
المجلد السابع من سير أعلام النبلاء

تصنيف الشيخ الامام العالم الفاضل

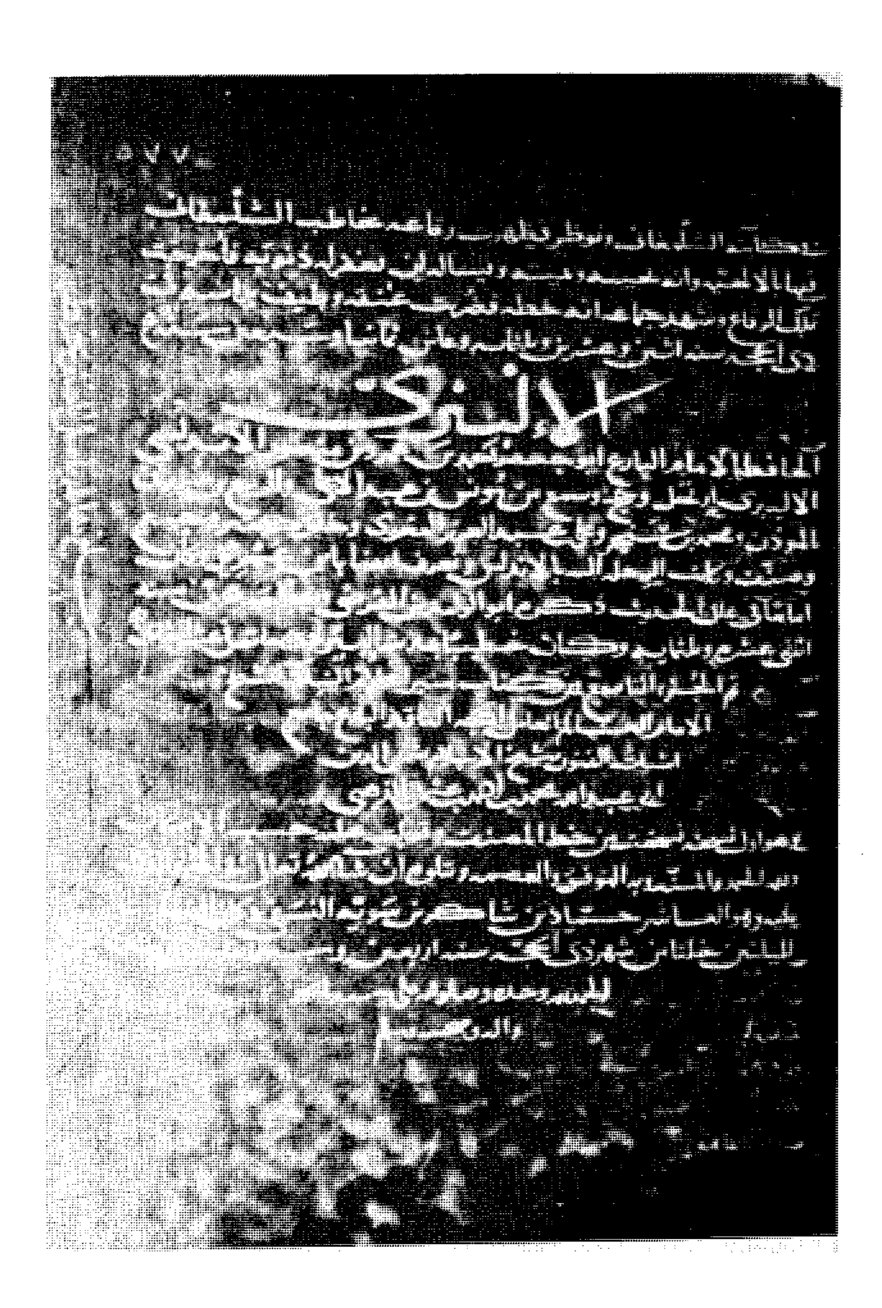
جامع أشتات الفنون شيخ الاسلام شمس الدين أبي

عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدمشقي

الورقة الأولى من المجلد السابع نسخة أحمد الثالث الأولى

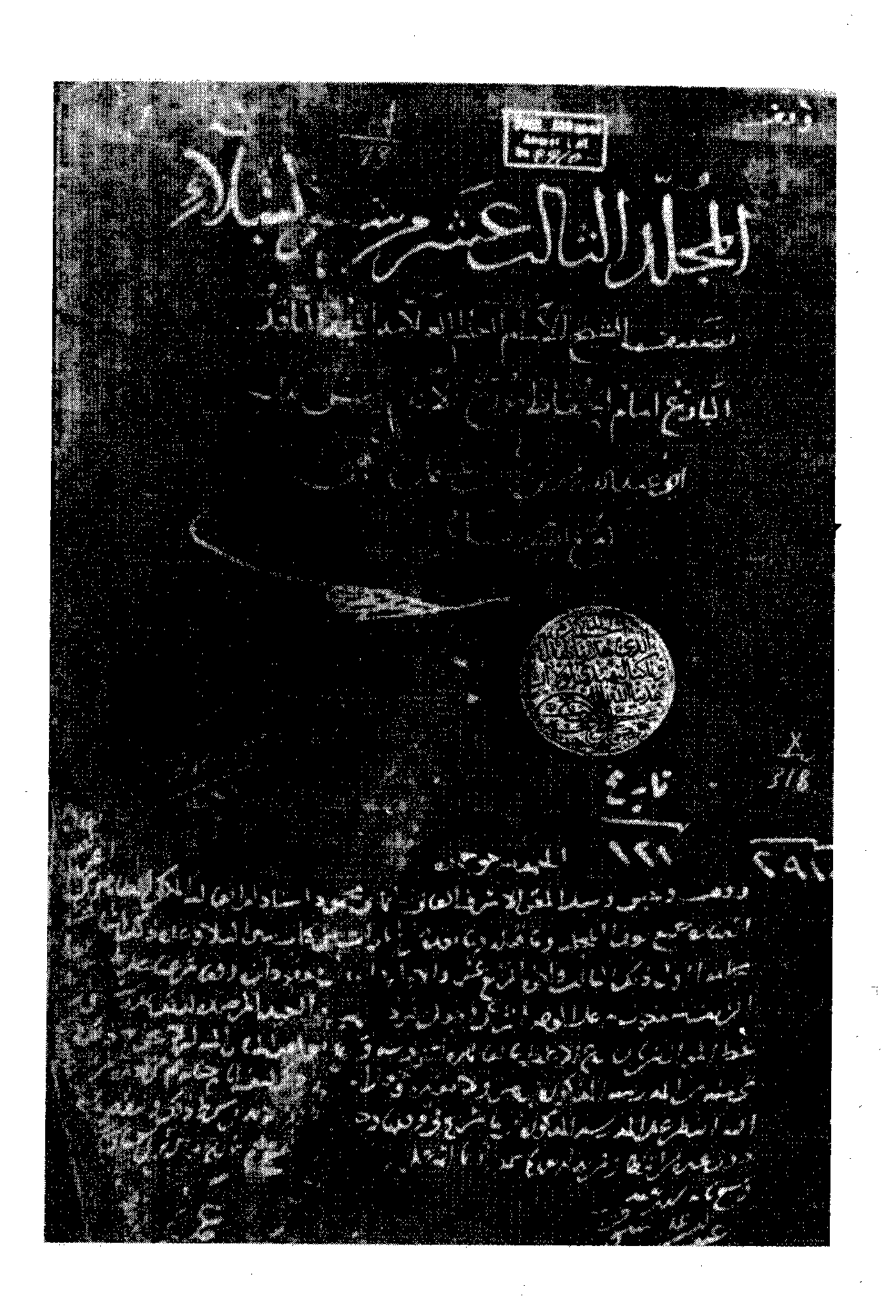


الورقة الأخيرة من المجلد السابع نسخة أحمد الثالث الأولى



الورقة الأخيرة من المجلد التاسع نسخة أحمد الثالث الأولى

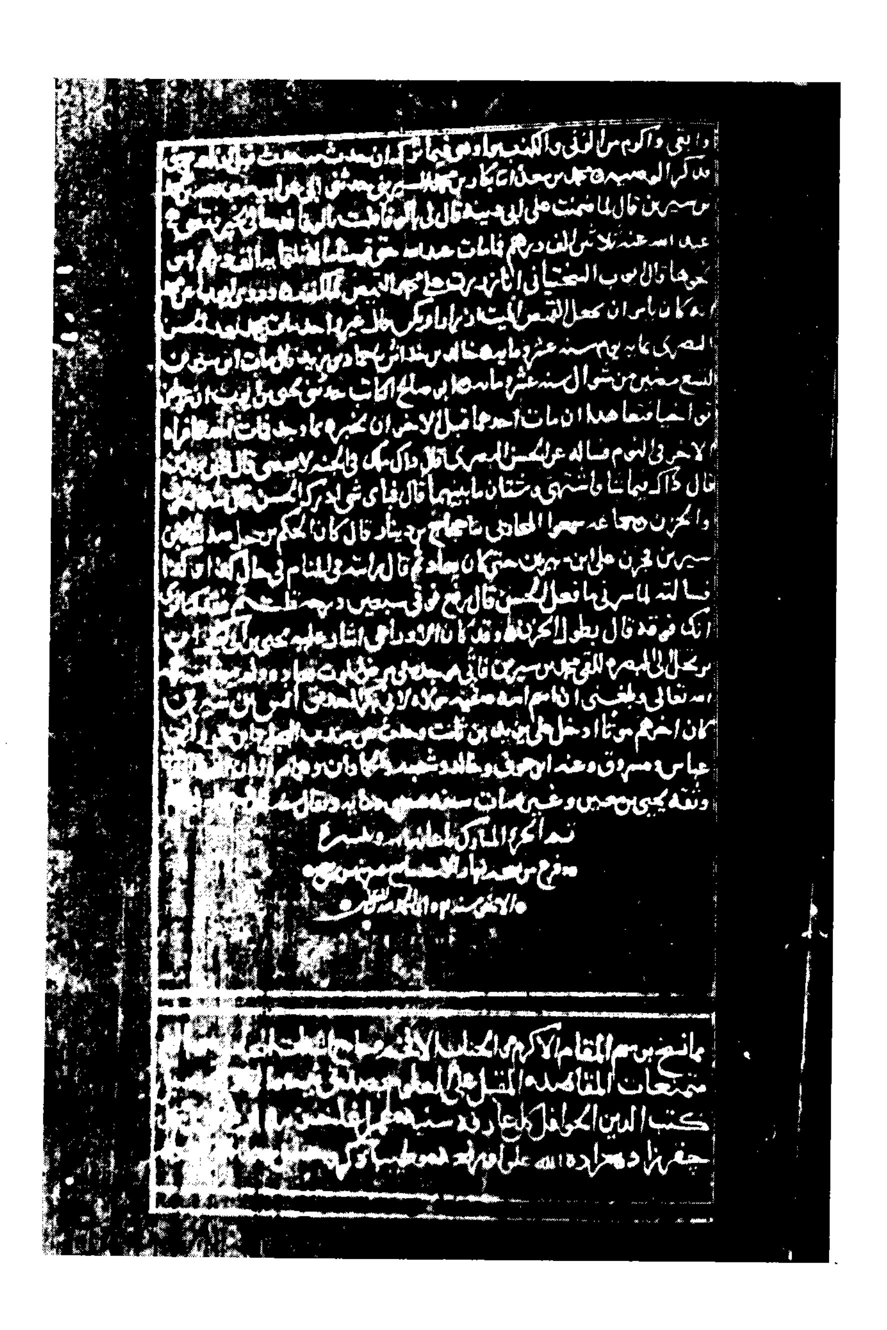
الورقة الأخيرة من المجلد الثاني عشر نسخة أحمد الثالث الأولى



الورقة الأولى من المجلد الثالث عشر نسخة أحمد الثالث الأولى



الورقة الأخيرة من المجلد الثالث عشر نسخة أحمد الثالث الأولى



الورقة الأخيرة من المجلد الرابع نسخة أحمد الثالث الثانية.